

مَنصُورَة عِزّالدّين

مَأوَى الغيَاب

متتالية قصصية

سرد

منصورة عزّ الدين

مأوى الغياب

متتالية قصصية



الإهداء

إلى تحوت مخترع الكتابة المجلل بالأسرار وملهم سلالة ممتدة من الفلاسفة والكُتّاب.

«العالم بأسره لعبة رموز، وكل شيء فيه يعني شيئاً آخر».

توماس دي كوينسي

«وأنت أيتها الذاكرة التي سجلت ما رأيت، هنا سيظهر نُبلك».

دانتي، الكوميديا الإلهية، ت: حسن عثمان

«لا لغة دون خداع».

إيتالو كالفينو، مدن لا مرئية، ت: ياسين طه حافظ

«ذلك أن إله الكتابة هو أيضاً، وبتلقائية، إله الموت».

جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، ت: كاظم جهاد

مدينة هالكة

أغمض عينيّ. أنسحب رويداً من العالم. تخبو أصواته وروائحه وألوانه. تملؤني بدلاً منها الأصداء والظلال. يغمرني سديم يستحيل ضباباً يتكاثف على مهل.

أقول لنفسي: «قتلتُ العالم. دمرته وتخففتُ من عبئه».

أحاول فتح عينيَّ فلا أفلح، أو ربما ينفتح جفناي لكن الظلمة المشوبة بأصفر خفيف تلازمني. تطغى على الضوء وتطرده بعيداً. أشعر بشيء ينفصل عني. بأنني أغادر ذاتي. كأن نواة دقيقة هي خلاصتي وجوهري قد هجرت بقيتي. أصير تلك النواة فقط، وأرمق بقاياي المفترضة بحياد. يدفعني برودي إلى التساؤل إن كان هذا ما تشعر به الأفاعي حين تنظر إلى جلدها القديم المتروك خلفها كثوب مهمل.

أنسجم مع واقعي الجديد. جالساً فوق صخرة ملساء نسبياً، أجد نفسي منغمساً في اكتشافها عبر اللمس وحده. يهدهدني سطحها الأملس، وتوقظني أجزاؤها الخشنة.

من خلف جفنَيّ المسدلين أحدس بتفاصيل ملجئي. يمكنني رؤيته والخطو فيه، على الرغم من أن لا شيء يربطني به سوى الكلمات. هو نفسه مشيَّد بها. لا يسعني تخيله إلَّا هكذا: شوارعه مرصوفة بالحروف ومزيّنة

بعلامات الترقيم، وتاريخه أحداث مئات القصص والروايات، وأماكنه أماكن الأدب المتخيلة.

أتسكع في طرقاته، فيقابلني كُتَّاب متألمون، يبحث كل منهم - على حدة - عن خلاص في مكان متأرجح على الدوام كأنه صخرة بازلتية محلِّقة في الفضاء. صخرة مربعة ومصقولة. التدقيق فيها يدفعها إلى التفتح كوردة تكشف للعين، بالتدريج، كوامنها ومخابئها، تخطيطها وعمارتها.

عند ناصية ما ألتقي بكاتب مستغرق في ألعاب جمالية يتحايل بها على زئبقية شخصية فنية وتَمنُّعها على خياله. وعلى مقربة من ميدان رئيسي أصادف كاتباً آخر عالقاً في فخ زمن سحيق يتشاغل عنه، بسرد حكاية خرافية عن جندي هارب من جيش تيمورلنك، وحالم بالموت على أبواب مدينة مبنية فوق صخرة يتلاعب بها الهواء.

في زقاق منزوٍ يتكوم كاتب ثالث على الرصيف كيفما اتفق، وقد تناثرت حوله زجاجات براندي فارغة، بعدما أرهق نفسه في عرضه اليومي: مشاهد مختارة اعتباطاً من أعمال أسلافه من الكُتّاب، يمثلها أمام جمهور صامت ومتجهم، يغادر ما إن ينتهي العرض دون كلمة تشجيع أو استهجان واحدة. جمهور يحدثه الرجل عن أشياء لا يراها غيره، فيهز أفراده رؤوسهم ببلادة، وينصرفون كنفخة دخان.

لا أنشغل بهؤلاء كثيراً لمعرفتي أنني وحدي رفيق

المكان والمرآة العاكسة لصورته. مبتكره والمتحكم في نبرته ومزاجه. طيفي يخيِّم على كل ركن فيه، فيما هو تائه في الضباب غافل عن حقيقة وجوده.

رسمتُ شوارعه بوحي من عقل ماكر مولع بالتيه، وخططتُ ميادينه بيد مرتجفة، بحيث لا يبقى منها بعد كل هَبَّة ريح إلّا خطوط باهتة، فتعود يدي لتخطها بارتعاش مضاعف.

تتجسد طرقاته المتداخلة وساحاته الهشة وتُستعَاد في ذهني كل مرة بصورة مختلفة. أقبض عليها وأراها بالغرق في تأملات توصلني إلى متاهات العقل المراوغ الموحي لي بابتكارها، بحيث أتناغم مع موجته، لكنها سرعان ما تفلت مني وأجدني معزولاً عنها بحواجز لا مرئية.

لا ينتمي إلى مأواي هذا إلا أصحاب العقول المراوغة. عاشقو الغموض والالتباس. مَن يحدسون بخطو الأشباح في صمت الليل، ويقدِّرون الأوهام ويحتقرون الحقائق، مَن يؤمنون بالخيال، ويقدسون الأوهام والضلالات.

لا يخطو في دروبه سوى أصحاب الذاكرة الانتقائية، مَن يحتفظون في أذهانهم بأدق تفاصيل القصص الخيالية والحكايات الخرافية، فيما تتبخر ذكرى أحداث حيواتهم الواقعية من رؤوسهم.

في وعي صخرتي البازلتية المحلقة في الفضاء، اختمر هلع كل المدن الهالكة. تاريخها الشخصي كتبته

لحظات فَنَاء سدوم وعمورة، وإرم ذات العماد، هنيهة هلع نينوى قبل أن يعفو عنها الرب.

لم يغرقها طوفان، لم تظللها سحابة قاتلة، ولا اقتلعتها ريح صرصر عاتية. كونها صخرة متروكة في الهواء فمصيرها التأرجح الأبدي، والبقاء على حافة الوجود. كل ثانية سيفٌ مسلط على رقبتها، كل هَبَّة هواء وعدٌ بهلاك قادم لا محالة. وعدٌ دائم لأن الريح لا تكفُّ عن الهبوب. تصفر بلا انقطاع.

تقطع كائنات المكان الطرقات والميادين وحيدة، مصابة بالدوار. لا يقدر الواحد منها على التواصل مع مجاوريه، يحدس فقط بوجودهم. ويصله صوت أنفاسهم ورَجْع نحيبهم، دون قدرة على الاتصال بهم.

ليسوا أناساً عاديين، بل حالات وجود أخرى لكتاب متفردين ذوي عقول خلاقة وأرواح متعبة. يعيش كل منهم هنا أسيراً لمشهد كتبه أو شخصية من بنات أفكاره، تطارده لأنه جرؤ على إخراجها من براح العدم إلى سجن الكلمات المحبوسة بين دفتيَ كتاب.

كافكا مثلاً، يعاين مشاعر جريجوري سامسا المرة تلو الأخرى، وكثيراً ما يجد نفسه في طريقه إلى القصر، أو مكان فنان الجوع.

كالفينو يتخبط على دروب مدنه اللامرئية بلا أمل في الوصول. وكارلوس فوينتس تحتل جسدَه روحُ الجنرال توماس آرّويو في أثناء احتضاره هاتفاً بحياة الزعيم بانتشو بييّا؛ الآمر بقتله!

أما بورخيس فيكتشف دورياً أنه الخائن ذو الوجه الموسوم بوسم السيف، ومثل فونِس تحتفظ ذاكرته بأدق التفاصيل، فيتحول رأسه إلى بحر ضاج وصاخب.

لكن برونو شولتز وضعه مختلف، إذ يجد نفسه دوماً في هيئة طفل أرسله والداه في مهمة ليلية لإحضار حافظة نقود الأب من البيت، طفل وحيد في مدينة متاهية متغيرة، تتشابه عليه شوارعها، وتتضاعف أمام عينيه، ومأخوذاً بالليلة الشتوية الدافئة يقرر زيارة «دكاكين القرفة»، إنما بدلاً من بلوغ مقصده المرغوب يُفاجَأ بآخر بيوته بلا أبواب، فقط بنوافذ محكمة الغلق. يتكرر الأمر بلا نهاية بحيث يعجز برونو - المسكون بجسد الطفل ومشاعره وأفكاره - عن الخروج من تيه التكرار.

يحن إلى «شارع التماسيح» أو إلى «جمهورية الأحلام»، أو أن يكون الطفل نفسه، لكن في مشهد آخر وقصة أخرى. مثلاً وهو يفرِّج شخصاً ما على رسوماته وينصت إليه بينما يخبره أن العالم يمر عبر يديه كي يتجدد. تاق حتى إلى معايشة لحظة قتله الواقعي، على يد ضابط نازي في أحد شوارع دروهوبيتش، لمجرد الخروج من محبسه داخل مشهد «دكاكين القرفة» المسيطر على وجوده هنا.

لم يكن برونو ليفهمني لو وجدت وسيلة لإخباره ألّا يرهق نفسه بالأمنيات، فملجأ الأرواح المتعبة هذا منسوج من أوهام. هو شبح الحياة على إطلاقها، وفي

شبحيته هذه يَمْثُل كأم للأشباح كافة. كل شيء وكل شخص فيه منذور للضياع والتبدد كأنه لم يكن. هذا ما أعرفه جيداً، وأتصرف على أساسه دون الانشغال بتساؤل: كيف حصّلت هذه المعرفة؟

أحتفظ بأفكاري لنفسي. فلغة ملجئي لا معنى لكلماتها. مجرد أصوات منغلقة على ذاتها. بلا ظلال أو تأويل. كما أن لا ترجمة لها. سوف تصير مجرد همهمات لو تجرأ أحدهم على النطق بها أو حاول ترجمتها.

وفي هذا يتمثّل جحيم قاطني المكان من الكتّاب المتفردين. كيف لهم التعبير عمّا يجيش في صدورهم ويعتمل في رؤوسهم؟!

دون الكتابة هم كائنات ناقصة. دون لغة لا مبرر لحياتهم. كلما حاول أحدهم نقل خيالاته إلى كلمات مكتوبة يكتشف أنها فارغة. لا تدل على شيء. ولا وجود لها خارج ذاتها؛ خارج الصوت الأعجم الذي تُنطَق به. كيف لهم حقنها بالمعنى؟ بل كيف يعرفون المعنى أصلاً كي يضخوه في الكلمات؟

بعضهم اكتفى بالخيالات. آخرون شحذوا مهارات أجسادهم، حولوها إلى لغة قائمة بذاتها. أرهقوا أنفسهم في التدرب على استعراضات جسدية مثالية. على الامتثال لسطوة الجسد الغارق في نشوة الرقص. راقبوا كل حركة تصدر منه، كل احتمال همسة تندى عنه، أجهدوا أذهانهم في تخيّل كيف يكون الجسد بليغاً، وموجزاً. كيف يُغنِي عن الكلمات حاملة المعاني.

شريحة ثالثة اكتفت بالصمت. ذوى أفرادها وشحبوا. ارتموا في أقرب بقعة إليهم متكومين على أنفسهم، محاولين تقليل حركتهم لأقصى حد ممكن. هؤلاء لم يجدوا مبرراً لوجودهم وقد فقدت كتاباتهم معانيها. لطالما اعتبروا أنفسهم سادة للغة وفرساناً قادرين على ترويضها والتلاعب بها، حتى لو رددوا - من وقت لآخر – كليشيهات عن كيف تخونهم اللغة وتخذلهم الكلمات.

الشريحة الأخيرة تكوّنت ممن نفضوا اليأس ورثاء الذات بعيداً، وقرروا اختراع لغة جديدة على مقاس خيالاتهم وأحلامهم. تمثلت المشكلة الوحيدة في أنه، بحسب ناموس ملجئي المخترع، كل فرد من قاطنيه محكوم بالعيش وحده حتى ولو وسط آلاف. لا أحد قادر على التواصل مع الآخرين، لذا لا سبيل أمام لغة مشتركة، بل لغات لا تواصل بينها.

هنا برج بابل جديد. تبلبلت الألسن، ولا سبيل لعودتها عن هذا التبلبل.

لم يعد أي فرد من أفراد هذه الشريحة يدرك أنه جزء من جماعة أكبر، وأن هناك آخرين ممن يسيرون مترنحين في الشوارع والأزقة، قد قرروا مثله ابتكار لغة بديلة. كل منهم ظن أنه أتى بما لم يأتِ به سواه: العكوف على اختراع حروف ومنحها أصواتاً، وضخها بالمعاني.

وحدي كنت مدركاً لما يدور حولي كأنما يجري في رأسي أولاً قبل أن يطير منه للتجسد في واقع أراه

أمامي. أختزن بداخلي معارف هائلة، لكنها هشة وذائبة. تزورني ليلاً في صورة أحلام أو بالأحرى شذرات من أحلام. أفيق ببقاياها مترسبةً في رأسي ملقيةً بظلها على يومي. من مزقها المتنافرة أخيط حياة مفترضة.

بحدس ماكر كنت أغربل فتات أحلامي مخمناً أيها ينتمي إلى ماضٍ ربما عشته أو تخيلته وأيها هلاوس أو نبوءات لا يمكنني التأكد من صحتها. في قلب الفئة الأخيرة يقع معبد منحوت في جسد جبل على ضفة نهر. كان هذا المعبد يخايلني في مناماتي فأشعر كأنما أخطو بين جنباته متأملاً النصوص والرسوم المنقوشة على أعمدته وجدرانه، وفي الحال تحضرني أفكار غير مترابطة عمّن تدعى «ربة الطلاسم»، ثم يتلاشى الحلم.

اعتدت تصنيف كل ما يخص المعبد وربته الغامضة في خانة حياة مستقبلية، حقيقية كانت أم متخيلة، وإن كنت أشعر أحياناً بأن له علاقة وثيقة بماضٍ لم يعد يخصّني في شيء، وتبخرت معالمه من ذاكرتي، ومع هذا يسم حاضري ويحدد مساره.

كنت واثقاً من أن المعارف التي تغزوني عن ملجئي وآهليه ذات صلة بربة الطلاسم هذه، وأنها - بطريقة غامضة عليّ - العقل الموحي لي بابتكار هذا المكان والمتحكم في أدق تفاصيله. لكنني، في هذه المرحلة، لا يمكنني البرهنة على أي شيء بما في ذلك وجودي ذاته.

على الرغم من كل شيء كنت ممتناً لأن في وسعي إدراك وجود الآخرين والوعي بمأزقهم وهوياتهم، دون

معرفة أي حظ ـ حسن أهّلني وحدي لهذا الامتياز. ما كنت أعرفه جيداً أن عليَّ تجاهل الماضي كفكرة ومفهوم للتماهي مع هذا المكان قدر الإمكان، فهو بلا ماضٍ؛ لأنه لا يتقدم إلا بمحو ماضيه، والتخفف من أعبائه أولاً بأول. هو هنيهة صمت بين جملتين متسارعتين. لا ذاكرة له، ولا يعترف بالتاريخ. معبوده النسيان وتاريخه ذرات غبار متطايرة في عاصفة.

سكانه يقتلهم الحنين إلى ماضٍ محاه المكان بنفسه. إرادة المكان ضد إرادة قاطنيه، ومن هذا التضاد تنطلق شرارات إزعاج غير ملموسة، لكنها تقض مضجع كل من يخطو في الطرقات المشيَّدة من كلمات وهلاوس.

وإن كانت هذه الشرارات ليست المشكلة الأساسية هنا، فالتعدد اللانهائي حظي بهذا الشرف. لا شمس واحدة في نهارات الصخرة المتأرجحة، بل شموس عديدة ينقسم كل منها على نفسه مولِّداً عشرات النسخ. القمر على المنوال نفسه كان يتضاعف بلا توقف.

من ينظر إلى السماء نهاراً لمراقبة التناسخ السرمدي للشمس، لا يستطيع تحويل عينيه عنه، وينتهي به الأمر لفقدان بصره، فيظل محدقاً للأعلى بعينين معتمتين.

ومن يتأمل السماء ليلاً، متابعاً الانقسامات القمرية، لن يعود في مقدوره النظر إلى أي شيء آخر، وحتى لو فعل، لن يبصر سوى عشرات الأقمار المتوالدة أحدها من الآخر. سيرى في كل شيء حوله اللون الفضي الرقراق المختلط بزرقة خفيفة أو وردي فاتح أو برتقالي لا يكاد

يُحَس. ألوان القمر، ملك التحول واللاثبات.

سيفقد الناظر - مع الوقت - إحساسه بالمكان والاتجاهات. سوف يُقمر كأنما أعماه ثلج لا وجود له، بحيث يتوه في أكثر المناطق ألفة لديه. سيضيع ويدور حول نفسه في دوائر تسلمه إلى لعبة تكرار بلا نهاية. ويخطو في شوارع كل منها قرين للسابق عليه وشبح له.

لا تتوقف مفارقات ملجئي عند هذا الحد، فلنباتاته نصيب وافر منها، حيث تتناقض مع الطقس. في الشتاء تنمو أشجار استوائية بثمار غريبة وزهور برية ضخمة في مناخ قارس البرودة، لا تكاد تكف الثلوج فيه عن الهطول. وفي الصيف تختفي الأشجار الاستوائية وتحل محلها أخرى لا تنمو إلّا في أجواء باردة، مع أن صيف الجزيرة شديد الحرارة، إذ تُضاعِف الشموس المتعددة من لهيبه.

لا ينشغل أحد غيري - على ما يبدو - بهذا التناقض، فالآخرون لا يعرفون العالم خارج حدود تلك الصخرة المتأرجحة. ومعلوماتهم عنه نتاج تهويمات وأحلام من الصعب التأكد منها، أو قراءات قديمة ترسبت في أعماقهم. في ذاكرة قراءاتهم وحدها صادفوا عالماً ذا شمس واحدة وقمر واحد ونباتات استوائية في مناخات حارة، وأخرى قطبية في مناخات شديدة البرودة.

كان فوق تخيلاتهم، وجود ما يسمى بالخرائط، أو بشبكات الطرق الواصلة بين مدن وبلدان مختلفة.

بالنسبة إليهم المدينة تعني الانقطاع والعزلة. عالم قائم بذاته لا وجود لشيء خارجه. هي الاكتفاء التام بالذات. في ناموس واقعهم الحالي لا يوجد طريق، أو للدقة لا وجود له بالصورة التي تعرفوا عليها عبر القراءة. الطريق في غُرفهم قرين التيه. لم يعرفوا لفظة «الوصول» بكل مترادفاتها. لو حدث وتذكروا شرحاً لها لدارت رؤوسهم ولم يفقهوا شيئاً. كان في إمكان أقلهم موهبةً وثقافة أن يدوِّن في رأسه مجلدات عن معنى الضياع، أن يدرِّس فلسفة الحلقات المفرغة، والتكرار الأبدي، لكن لو سأل أشدهم نبوغاً نفسه عن مضاد الضياع ومعكوسه أو عن الوصول إلى غاية أو مقصد ما، لغمرته الحيرة. مدن الكتب وكائناتها بدت لهم بالغة الغرابة.

لا يعرفون الكتب هنا بالطريقة التي عرفوها بها في السابق. لا وجود لها في حاضرهم، لكن محتوى ما سبق وقرأه كل منهم كان مخزناً في طبقات ذاكرته، بحيث تحوي أزقتها ودهاليزها المعتمة خلاصة مئات المجلدات. في أثناء النوم، بدلاً من الأحلام، كانت تتراءى لهم مشاهد وحوارات من كتب متنوعة. بعضها يتذكره الحالم بسهولة، بل ويكمل عليه بلا توقف، وبعضها الآخر قد يأتي مستلاً من سياقه. وفي هذه الحالة، يُكتَب على النائم المسكين، أن يظل نائماً حتى يتمكن من تذكر السياق وعنوان العمل المقصود.

بعضهم لا يدرك أنه بالأساس كان كاتباً. تلاشت هذه

الحقيقة من ذاكرته، وغاب عنه ماضيه والأصل الذي انبعث منه. وبعضهم الآخر يفقه حقيقته جيداً، ويعذبه هذا لوعيه بأن لا مفر له، ولا مهرب من هذه الصخرة المتأرجحة. الخروج من حدودها، يعني سقوطاً حراً يؤدي إلى التحطم والتفتت. يفطن أيضاً إلى أنه سيظل أسيراً لمشهد كتبه أو شخصية خلقها، وسيمر باللحظات نفسها إلى ما لا نهاية، إلّا إذا استطاع شحذ خياله، وابتكار سيناريو كافٍ لإخراجه من دوامة التكرار هذه، وشرط أن يكون السيناريو كافياً يتلخص في أن يتجاوز منسوب التخييل فيه كل أعمال مبتكره السابقة. وتكمن صعوبة هذا في أن هذا الملجأ الشبحي يمتص طاقة التخييل من رواده. يستحوذ على عصارة خيالاتهم وأفكارهم، بحيث يكونون في لياقة تخييلية ضعيفة. حوّلهم المكان إلى مجرد متلقين لتهويماته، أو للدقة، تهويمات ربة الطلاسم التي حين أمعن التفكير فيها أراها أقرب إلى الهلاوس ونوبات الجنون منها للأفكار والخيالات، ومع هذا أدرك أنني، في حالتي هذه ومن موقعي هذا، لن أكون قادراً على التمرد عليها أو عصيان ما توسوس لي به.

أعرف أن عليّ التصادم معها في مرحلة ما، وربما أكون قد فعلت هذا في الماضي. كان هناك سبب وجيه لمعركتنا، وكنت نداً لها، بل ربما كنت أفوقها قدرة وقوة. لا أستوعب كيف تحولت إلى كائن لا يملك من أمره شيئاً؛ كيف غابت عني هويتي وحقيقتي؟

مثل الآخرين هنا، خيالي مستنزف وذكرياتي حاضرة، لكنها تنتمي إلى قراءات ومعارف مختزنة لا إلى حياة معيشة في السابق. أبدو كأنما انبعثت في هذا المكان من العدم، وسوف أستحيل غباراً حال مغادرتي له. كأنه من ابتكرني بينما أظن أنني مبتكره. أو ربما كنت أنا وهو معاً من تهيؤات «ربة الطلاسم».

أياً ما يكون الأمر، يضايقني فقط إحساس مسيطر عليّ بأنها تراقبني، وتعدّ عليّ خطواتي وأنفاسي. توحي إليّ بمعلومات تشعرني للحظات بتميُّزي عن كل من حولي، لكنها تخلِّف في حلقي غصة، إذ أدرك عبرها هشاشة وجودي الحالي ولحظيته. فمع كل نفس تسرِّب تلك الربة الغامضة لي حقيقة أنني في محطة انتقالية، كل من فيها محكوم بالقفز من فوق صخرة المصير.

كل واحد هنا يدور في الطرقات كيفما اتفق أو يتأمل الأقمار أو تعميه الشموس أو يدرب جسده على أن يكون بديلاً للغة، لكنه - سواء علم بهذا أم لا - ينتظر يومه المرتقب. يوم يصحو فيه على همس لا ينقطع. يحاول تجاهله، فلا يفلح. يتحول إلى عشرات الأصوات المتزامنة المشتتة للتفكير والوئام الداخلي، ولا يخفت إلا حين يطيعه الموبوء بسماعه، ويتحرك وفقاً لما يمليه عليه. لحظتها سيدرك أنه ليس صوتاً بل سلسلة من الأفكار والهواجس تكاد تكون مسموعة من فرط إلحاحها واستحواذها على المخيلة.

في كل الحالات تقريباً تأمر الوساوس المبتلى بها

بالدوران في حلقات مفرغة، حتى لا يعود قادراً على تمييز الاتجاهات ولا معرفة موقعه من العالم. هنا بالضبط ستقوده إلى «صخرة المصير»، تلك النسخة المصغرة من الصخرة البازلتية المكوِّنة للملجأ.

هناك سيقف مشحوذ الحواس مُركِّزاً في نقطة ثابتة أمامه ومحاذراً الانزلاق. وما إن يصل إلى لحظة الإشراق ويبصر الكون الخفي الكائن خلف مركز تحديقه، حتى يخاصمه الحذر فيقفز نحو المجهول. يتلاشى العالم كما يعرفه. يخفت كل شيء ويضمحل. ثم يظهر محيط عميق الخضرة. وبالتدريج تزداد خضرته دُكنة حتى تستحيل سواداً. ومن قلب العتمة تنبثق دائرة ضوء لها فعل ثقب أسود، إذ تجذب الغافل عما سيحدث له وتبتلعه في أعماقها، ليُفاجَأ بأنه في قلب ما لم يتصوّر وجوده في أشد خيالاته جموحاً. قد يجد نفسه غارقاً في ضباب الجهل بلا معالم إرشادية، ولا دليل يقوده إلى طريق النجاة. قد يظل محبوساً إلى الأبد داخل هذا العالم، غير قادر على الفكاك منه. ساعتها سينسى كل ما سبق وعايشه، وسينغمس في تيهه الجديد غير مدرك لما حاكته له مخيلة ماكرة. ربما تغزوه شذرات متقطعة تعرِّفه بمزق من ماضيه، لكن هذا لن يفيده في شيء، إذ لن يكون في مقدوره تغيير قدره ولا حرفه عن مساره ولو قليلاً. كما قد تورثه هذه المعرفة الكآبة إذ تلمِّح له بحقيقة فقده لذكريات ومعارف من المستحيل تعويضها.

أنا نفسي تداهمني الكآبة كلما فكرت في ما قد يعقب القفز من فوق صخرة المصير. الغريب أنها لا ترد على ذهني إلا وأنا راقد في بقعتي الأثيرة من عالم شيدته بأناة وإتقان: في حقل صبار تتنوع شجيراته وتختلف ألوانها وروائحها، غير أنني أحب التمدد بين الصبارات المزروعة في دائرة تتوسطه. أرتاح لشكلها البيضاوي ولرائحتها النفاذة، المسببة للاسترخاء والخمول. أدمنت استنشاقها والامتلاء بها كأنني قارورة معبأة عن آخرها بعطر معتق.

لم تثنني موجات الحزن المصحوبة بالنحيب عن عادتي هذه، على العكس دفعتني إلى التمسك بها أكثر، لأن البكاء يشعرني، في النهاية، بالخفة والتحرر.

صخرة المصير

استيقظتُ على إحساس رهيب بالثقل. شعرت كما لو كنت أزن طناً. حدَّقت في هيئتي، فلم أجد تغييراً قد طرأ عليها باستثناء لحيتي النابتة. الجسد المعتاد نفسه، لكن زاد عليه همس أشبه بسوسة تنخر في رأسي. تحركت بصعوبة نحو الحمَام. تأملت وجهي في مرآة مغبشة قبل الاغتسال والعودة إلى حجرتي.

فتحت الشبَّاك. سرحتُ في المنظر بالخارج. المكان كما هو. عاد الهمس من جديد، ومع عودته انتبهت إلى أنه ليس صوتاً بقدر ما هو وسواس داخلي مستحوذ عليّ.

كالمسرنم خرجت. درت في الطرقات والشوارع حتى تيبَّست روحي، ولم أعد قادراً على تمييز يميني من يساري. واصلت خطوي، حريصاً على عدم الالتفات إلى الخلف.

كنت أعرف وجهتي النهائية، واتجهت لها بلا حماس أو تلكؤ. عند نقطة معيّنة لاحت في فكري مفردة الموت. استعدتُ بعض وقائعه كما تعرفتُ عليها في روايات وملاحم قديمة. هذه مرجعيتي الأولى والأخيرة. لسبب غامض راودني إحساس أنَّي خبير بالموت كأنما اختبرته من قبل.

تدبرتُ فيه، فخطر لي أنه قاطع طريق أعمى. ليس في مقدوري تخيّله سوى على هذا النحو. مسنٌّ ضرير

ومسكون بالضجر. تقادُمُ عمرِه أورثه قسوة وحوَّل قلبه إلى قطعة من صَوَّان، وعماه ضاعف من شراسته وغلاظة قبضته.

لا بدّ من أنه غير قادر على الرؤية، وإلّا كيف لا يرق قلبه أمام توسلات الحياة في عيون الأطفال الذين يقطفهم؟ حاولت تذكر متى رأيته يقطف أطفالاً، فلم أفلح. لم ألمح طفلاً واحداً طوال حياتي الواعية هنا. حتى الكتب المختزنة في داخلي لم يحضرني منها مشهد موت طفل. مؤكد أن هذه التفصيلة كانت موجودة في كتاب أو أكثر، طالما برقت في ذهني، غير أنها فقط امَّحت من ثقب أسود اعتدت تسميته بذاكرتي.

المهم أن قاطع الطريق هذا كان يترصدني. لطالما شعرت بلهاثه خلفي. أحسستُ مرات بلمسة يده وهو يهمّ بالقبض على عنقي. ومرات كدت أراه جاثماً فوق صدري كأنما يرغب في منعي من الإفاقة من غيبوبة نومي، لكنه في الغالب كان يراقبني من مسافة محسوبة، بحيث أحدس بوجوده قربي، فأعيش في ظل هلعي منه، وينتشي هو بسلطته عليّ.

والآن وقد أوصلتني خطواتي إلى الصخرة الموعودة، شعرت به يحتضنني في وقفتي فوقها. للحظات بدا حنوناً حساساً وشغوفاً بي. أكان يجذبني بعيداً عن القفز في هاوية لا أعلم ما تخبئه ظلمتها، أم أن هذه بعض هلاوسي؟! طوال الوقت يبدو كأنما يروقه أن يظل

سيفاً مسلطاً على عنقي دون عبور الشعرة الكفيلة بجزها. يقترب، وحين أغمض عينيَ مهيئاً نفسي لمصيري يتراجع، وإن لا يبتعد كثيراً. يظل في الجوار، ولهذا فقط اعتبرته شخصاً تقتله الوحدة، ويتلاعب به الملل.

قلت لنفسي: «فقط يرغب في مشاركتي لحظتي المهمة».

تجاهلته. نظرت لأسفل. كادت قدماي تنزلقان على البازلت المصقول. توازنت بصعوبة وواصلت التحديق عسى أن تنفتح الهاوية أمامي كاشفةً عن وجه أكثر حنواً. لم أبصر في داخلها سوى دوامات تخلّف دمدمة كأنما تصدر عن نار متأججة. لم يكن ثمة حرارة، فقط جَلَبة سعير غير مرئي. صوت لا يمكن تحديد كنهه ولا مركز انبعاثه.

لطالما أخافتني الأصوات. عبرها عايشت أفظع خبراتي. من ذبذباتها ارتسمت مخاوفي وتشكلت أشباحي. دائماً ما كان هناك صراخ ما، أو ضجة مزعجة أو فحيح منذر بالخطر قبل كل الأحداث السيئة التي أظنني مررت بها.

استدرت خلفي، فلم أجد مدينتي. تلاشى الطريق الذي اتخذته وصولاً إلى هذه البقعة. تقلص عالمي إلى حيز أشغله، وصخرة أقف عليها، وهوّة تنتظرني، وما عدا هذا محض فراغ.

بدا الأمر كما لو أن العالم محبوس بعيداً عن ناظري.

تخبئه عني أسوار خفية. ما أراه حولي، وما أتحرك فيه ليس العالم كما ألفته وحدست به، بل نسخة داكنة منه مغمورة بالظلال والقرقعات الغريبة. لا أستطيع حتى التأكد من أنها محيطة بي. شيء ما فيها يوحي بأنها تنبع مني. تنبعث من داخلي. تصطدم بجدران جسدي، فيتعملق صداها. ينتشر في ذهني وتبتلعه أذناي، لكنها لا تطرده خارجاً. تظل مسكونة به، فيمنع عنها التقاط أي شيء آخر.

عصرت مخي لمعرفة إن كنت قد قرأت عن تجربة مماثلة، فلم تسعفني ذاكرتي. تراءت أمامي شذرات مختلفة من كتب غاب عني محتواها الكلي. تناثرت تفاصيلها إلى مجرد خيوط غير متسقة، عليّ لضمها معاً، ورتق مزقها، غير أن مخيلتي المعتلة حجّمت طموحي في هذا الصدد، وأقنعتني أنني لم أكن مؤلفاً قط. لا يمكن للتأليف أن يستقيم مع هذا الخواء الذهني. لا يبتعد خيالي عني ولو لخطوة. لا يسبقني ولا أسبقه. يلتصق بي وأحاصره.

لكن ما أدراني؟! ربما كنت يوماً مؤلِّفاً ذا مخيلة متقدة. ربما تمثَّل جحيمي في تقييد مخيلتي، وغفلتي عن الأفكار المضطرمة في عقلي. لا بدّ من أن هناك أتُّوناً متوارياً بداخلي خلف قناع الفراغ هذا.

لم أترَك لخواطري كثيراً. تعالت الدمدمات، فرفعت قدمَيّ عن الصخرة الزلقة ورميت نفسي في كوة مفتوحة، في الغالب، على العدم.

كان سقوطاً حراً بلا نهاية ما اختبرته بمجرد القفز. شعرت بخفة مطلقة. كأنني بلا شكل ولا أشغل حيزاً من الفراغ. غاب جسدي وتحررت روحي. كنت وحدي. العالم بأكمله ملكي. ينتظر أن أخترعه وأعيد تشكيله. هذا ما خطر لي للحظة، قبل الانتباه إلى أن عليَّ، في المقام الأول، اختراع ذاتي واستعادة جسدي وحثَّ روحي كي تحتله من جديد. ثم تلاشى هذا الخاطر، وتبدت لي سخافته، إذ ما همَّ أن أتجسد ويصير لي قوام في عالم خاصم الأبعاد والأشكال ولم يعد فيه مكان للزمن؟!

انتبهت إلى تغيير طفيف. شعرت برجة مزلزلة كأنني انتقلت من مجال لآخر. ولجت منطقة بينية عليَّ أولاً تبيّن ملامحها والتأقلم معها. لم أعد وحدي. رافقتني تأوهات متألمة وصرخات هلعة وقهقهات كأنما صادرة عن أناس فقدوا عقولهم.

فقط، في هذا الفضاء البيني أفقت على عجزي عن الرؤية. راعني تأخري في اكتشاف هذا. بعدما آمنت طويلاً بمركزية حاسة البصر، أوَاجَه الآن بحقيقة هامشيتها.

حاولت تخيّل محيطي. جاهدت لرسمه وتشكيل تفاصيله متجاهلاً مهرجان الضجيج القابع عند حدود أذنَيّ. خذلتني مخيلتي العرجاء. لم أعرف إن كان شحذها وتنشيطها سيؤدي إلى نتيجة ما أم أن عليَّ الانتظار وادخار قواي لهدف مضمون التحقق بدرجة

أكبر.

لم يعد ما أختبره يشبه السقوط في شيء. صار تحليقاً لأسفل. تقت للالتحام بقاع ما. غابت الأصوات. حلت بدلاً منها موسيقى تمحور حولها كياني. شعرت بروحي تنتشي، قبل أن يتوقف كل شيء، وأتجمَّد في منطقة الثبات. عدت للرؤية. صرتُ ذرة لا تكاد تُرَى، رابضة تحت حجر. أراقب ما حولي، والوجود غافل عني. كنت في فضاء صخري بالكامل.

استعدتُ مرحلة وجودي في مدينتي السابقة، حيث لا ماضي ولا مستقبل ولا معنى للكلمات. لولا أن ما مررت به منذ قفزت لا يزال حياً نابضاً بداخلي، لظننت أنّي لم أغادرها قط. وصلت فقط إلى بقعة غير مطروقة منها.

استرجعتُ طرقات متداخلة يؤمها فرادى متوحدون. كان ثمة رجل يؤدي مشاهد من كتب ما لجمهور ينصرف عنه قبل انتهائه من عرضه، فيتعثر هو بين زجاجات براندي فارغة قضى عليها في فترة قياسية. وكان هناك طفل يركض ليلاً في شوارع متشابهة في طريقه لإنجاز مهمة طلبها منه أبواه. لكن ما أثَّر فيّ بحق كان مشهد شخص يُقتل وهو يهتف بحياة الآمر بقتله.

لم أعرف أسماء هؤلاء، ولا ما تعنيه أفعالهم، غير أنّي كنت موقناً من انتمائهم إلى ماضيّ القريب.

تساءلت: أي من هؤلاء سبقني بالقفز؟ وأيهم سيتبعني؟ وهل سيختبرون جميعاً ما اختبرته أم أن

لكل منا مساره الخاص؟

لم يسعفني جهلي بإجابة أطمئن لها. عنَّ لي فجأة أنني قد أكون أحد هؤلاء الذين استعدتهم قبل قليل، ومنعتني غفلتي عن ذاتي من التعرف على هويتي، إن كان لي هوية واحدة مُنجَزة ومحددة.

ثم أشرق عقلي بفكرة أن أختار هويتي بنفسي. تمثلت الصعوبة في أنني بلا خيال تقريباً، وأكاد أكون بلا ذاكرة أيضاً. فذاكرتي تتلاعب بي. في لحظة تكاد تتلاشى، وفي الأخرى تبرق بتفصيلة مُنبَتَّة الصلة عن ما عداها. قلت سأنتظر صابراً إحدى نوبات برقها، وما إن تحدث، سأبني، على ما تهبني إياه، هويتي المُختَارة.

تراءى لعينَي خيالي بحرٌ هائج مغمور بالضباب. فقلت في سري: «هنا بيتي!»، وفي الحال شعرت بجسد يتشكل لي ويحتوي روحي. شرعت في استكشاف مسرحي الجديد. لاحظت أنني في بقعة مثلثة الشكل. أحد أضلاعها يستند إلى جبل شاهق، والضلع الثاني يقود إلى غابة ممتدة، وحين وصلت إلى حافة الضلع الثالث اكتشفت أنه يطل على بحر خيالاتي الهائج.

لم يبد الجبل مغرياً بما يكفي، والغابة كانت غامضة بما يفوق قدرتي على الاحتمال، أما البحر فلم يكن أكثر إغواءً أو أقل غموضاً، لكنني شعرت بقرابة روحية بيني وبينه.

وقفت فوق الصخور المحدِدة لنقطة التقائه باليابسة وألقيت بنفسي فيه. احتضنتني أمواجه كما لو كانت

امتداداً لجسدي. لحظات قليلة وغدا العالم رمادياً. تلاشت فكرة الألوان والجبل والغابة، وصار الكون كلُّه من ماء.

بتُّ أنا والبحر كياناً واحداً، فعادت الزرقة إلى عالمي. بالتجربة فهمت ما يمكن أن يعنيه الغرق. لم أختنق ولم أعانِ لكوني في الأعماق، ومع هذا انتقلت إليَّ خبرة الغرق. غير أنني سرعان ما تماوجت وارتفعت مثل تل قبل الهبوط مجدداً وقد تناثر مائي، ثم طفوت على السطح، وبدأ انفصالي المؤلم عن محيطي.

رحت أنتزع جسدي انتزاعاً من الماء. أفصله عنه كأنما أقطعه بسكين. احتجت إلى قوة هائلة كي أمتنع عن العويل بينما أبتكر نفسي على هذا النحو المؤلم. ما إن نجحت في مهمتي حتى سبحت إلى أن بلغت يابسة لاحت في مدى رؤيتي. كانت مكسوة بأشجار سامقة رشيقة الجذع. قلت سأبني فُلكاً أبحر به. كنت واثقاً من أن المكان فيه كل ما يلزم، وما عليَّ سوى تفحص محتوياته للوصول إلى أدواتي. فكرت في حبال مجدولة من لحاء الشجر، وفي الاستعاضة عن ألواح الخشب بالجذوع الرفيعة، وحِرتُ في ما يمكن أن ينوب عن الشراع.

حاولت عبثاً ربط سيقان الأشجار معاً. عندما يئستُ سرتُ حتى وصلت إلى شاطئ أكثر عزلة. وهناك وجدتُ ضالتي تتهادى فوق الماء. سفينة مكتملة الصنع، يؤرجحها التيار بلطف. لوهلة خلتها خداع بصر، لكن لمّا

لم تختفِ حين أغمضت عينَيّ وفتحتهما، أطمأننت إلى وجودها الواقعي. خطر لي طبعاً أنها فخ لاستدراجي إلى هلاك محتمل، ومع هذا لم أقوَ على مقاومة إغراء القفز فيها، والإبحار بها.

وما إن فعلت حتى تبخرث آخذة معها جسدي فاختفى مجدداً، وذابت معه اليابسة. تقاذفتني الأمواج. اكتشفت أن تلاشي جسدي يسَّر ترحالي. صرت في انطلاق عاصفة.

في خضم هذا كله، صاحبتني رائحة نفاذة مألوفة لروحي. لم يكن في مقدور عقلي تحديد هويتها، لكن تأثيرها فيّ كان مهدئاً. بدت كأنما تهمس لي، على طريقتها، بألا أخاف أو أرتعد، بأنني في بيتي طالما ظللت قادراً على شمها والتأنُّس بها.

غابة تسكن بحراً

حين رأيتها أول مرة كانت صامتة داعية إلى التوغل فيها.

في البداية لم أنتبه إليها. كانت على يميني بينما أحدق في بحر هائج. استدرت لتأمل جبل يبدو كأنما يحجب عالماً كاملاً خلفه، لكن بدلاً من أن تصطدم عيناي به، تعثرت بتلك الغابة المثيرة للرهبة والحذر.

خلتها بقعة – بعيدة بعض الشيء – من اليابسة. أقسم أنها كانت كذلك، حين خطوت نحوها، لكن ما إن وطأت أرضها حتى خُيِّل إليّ أنها تتحرك منفصلة، وكلما توغلت فيها اتسعت المسافة بينها وبين اليابسة كاشفةً عن قناة راحت تكبر حتى صارت بحراً يحتضن الغابة من كل جانب.

شككني هذا في عينَيّ، وضاعف من شكي أنني حين وقع بصري عليها، من بعيد، بدت غير مستوية، بل تقترب من كونها تلاً قمته في مركزها وسفوحه أطرافها، كما تجلت الأشجار ككائنات تتسلق التل، لكن من قريب اتضح لي أن الارتفاع المفترض خداع بصر، إذ لم أصادف مرتفعات تذكر، بل سطحاً أقرب للاستواء.

الالتفاف مع الشاطئ قادني إلى معرفة أنها ليست غابة واحدة، بل عدة غابات تتشابك معاً ولا يفصل واحدتها عن الأخرى سوى درب تظلله الأشجار من الجانبين وتكاد تخفيه عن الأعين. كل ما سوى هذه

الدروب المتوازية متاهة من ممرات متشابكة، قد لا تسلّم من يقع في براثنها إلى أي وجهة.

بعد التعمق نسبياً داخلها، عدت إلى الشاطئ لأستكشف مدى اتساع البحر الظاهر لتوه. أردت التأكد من حقيقته. من كونه لا يمت بصلة للبحر الهائج المواجه للجبل. بمجرد تأكدي من هذا أدرت ظهري له، ويممت وجهي نحو هدفي الأول مجدداً. دخت بينما أتأمل الأشجار قبل الوصول إليها. شعرت كأني أمام تكرار لا نهائي للشجرة نفسها.

خطوت في أحد الدروب غافلاً عن نباتات الخزامى وإكليل الجبل والمريمية بينما تدهسها قدماي. لم يلتقط أنفي رائحة شجيرات العطرشان إذ يبللها المطر فيفوح شذاها. حدقت فقط في الطريق أمامي محاولاً تعويد عينيّ على إضاءته الكابية، وتخليص أنفي من رائحة عطنة ناتجة عن تحلل أوراق بفعل مطر متجمع في برك راكدة موحلة.

بانتهاء الدرب فوجئت بالسماء كأنما اخترعها عقلي للتو. لم تكن الغابات المتصلة أكثر من حاجز يخفي وراءه مدينة عامرة، كل ما فيها يوحي بالجدة والرخاء، ومع هذا بدت كما لو كانت تكافح لتخفي عني سراً أسود. دققت النظر فيها، فخُيِّل إليَّ أنها موسومة بالازدواج كأن في ثناياها قرينة يعشش الصمت في أركانها ويسكنها العطن وينخرها السوس. قرينة تراقصت أطلالها الخفية أمامي حتى أصابتني بالدوار

والخمول.

أعطتني الغيوم الكثيفة إيحاءً كاذباً بحلول المساء. ضاعف من هذا الإيحاء الضباب المخيِّم، والبنايات الصامتة، والطرقات الخاوية. كان هناك خط سكة حديد يخترق المكان ويغيب معظمه داخل الغابة. وتناثرت حدائق ومتنزهات مشذبة النباتات هنا وهناك.

تجلَّى لي هذا الفضاء كأنه العالم وقد استحال نصاً أستطيع قراءته. كل تفصيل فيه يحوي قصة في وسعي التلصص عليها بلا مشقة. حتى الحطام، المُخايِل لي كظل للمدينة، بدا بليغاً في ما يحكيه ويشهد عليه. لا يتعلق الأمر بمهارة مفترضة فيّ، بل بالمكان نفسه، إذ شحذ ذاكرتي وجلا بصيرتي ومنحني عيناً ثالثة مكنتني من رؤية ما وراء الظاهر: أرتني الركام الكامن في ثنايا الحوائط القائمة والبيوت المسقوفة، وساعدتني على تبيُّن غبار الهدد والتحطم حيث وهم العمران.

قال لي المكان دون كلمات منطوقة: «لا وجود لجغرافيا بريئة. الأرض محمَّلة بما جرى فوقها من فجائع. أحشاؤها حُبلَى بطبقات من ألغام الذاكرة».

أنصتُ إلى الكلمات المفترضة وهي تستحيل أفكاراً فورية في ذهني ومشاهِدَ أمام عينيّ، فلم أعرف إن كان ما أراه خلف الظاهر هو ماضي المكان أم مستقبله. أدركت فقط أن كل خطوة أخطوها فيه تدفعني إلى استعادة تاريخ شخصي وجمعي كان مدفوناً في أعماق ذاكرتي.

شعرت أني في طريقي إلى هنا - عبر الدرب في الغابة - كنت أتتبع مسيرة موت ما، طوابير من أناس مساقين إلى المجهول. حين تأملت الأشجار أبصرت رجالاً ونساءً فتك بهم الجوع والعطش، يتشبثون بالجذوع كأن في مقدورها إنقاذهم.

بينما أسير فوق الحد الدائري الفاصل بين الغابة وحدود المدينة، خلت أنّي أرى أطياف بشر. ربما من سبق لهم العيش في هذه البيوت والسير في هذه الطرقات. لم يكن ذلك الخوف المتسرب من عيونهم خيالاً، ولا تلك الرعشة المشعة من أجسادهم الشبحية توهماً. حدست أنهم عاشوا حياة من مراقبة بعضهم بعضاً. من عدَ أنفاس الآخرين ومحاولة التلصص على أفكارهم وأبسط أفعالهم.

كان كل منهم يسير وهو يلتفت وراءه. ينظر دائماً من فوق كتفه، ليس فقط للتأكد من أنه غير مراقب، بل أيضاً ليتمكن من مراقبة عابرة لمن يصدف أن يكون سائراً خلفه. هذا ما خمنته من متابعتي للمتحركين حولي. شعرت أني أعرف أكثر مما أحتاج إلى معرفته عن هؤلاء البشر المشكّلين من ضباب داكن.

خطر لي أنني كنت واحداً منهم. اختبرت مخاوفهم وسيطرت عليّ هواجسهم. كنت مثلهم شاهداً صامتاً على فظائع أدرت وجهي عنها، وانشغلت بمراقبة الشهود الصامتين مثلي راغباً في حبس أنفاسهم كما كنت أشعر أنهم يفعلون بي.

سرت بمحاذاة خط السكة الحديد عله يقودني إلى ما يكشف لي سر المكان. اجتزتُ في طريقي ساحات فخمة وشوارع عريقة لكنها تخلو من الروح. مشيت حتى أصبحت المدينة بعمرانها وخرائبها خلفي. المسار الحديدي كان لا يزال على مقربة، والضباب آخذ في الانقشاع لتحل محله – في التمويه على وضوح الضوء - ظلال الغابة وقد اقتربتُ منها. متتبعاً خيط إريادنة الخاص بي، توغلت بالداخل، حيث الضوء شحيح مائل للخضرة والعتمة تنتظرني عند أي انعطافة غير محسوبة.

في موضع ما تعثرت بجذع مكسور أخفاه العشب عني. آلمتني ساقي، فجلست أستريح فوق صخرة قريبة. تعبَّق الهواء برائحة نفاذة شعرت بها تتسلل إلى أنفي قبل أن تملأني وتقيم فيَ. لم تكن كغيرها من روائح. كان في وسعي رؤيتها وتذوقها.

من الصعب شرح ذلك، لكنها تراءت أمامي على هيئة بخار أزرق يتجه نحوي لغزوي. ومع تسربه من أنفي إلى رئتَيّ، تذوق لساني طعماً مُراً.

قلت: «هذه مرارة نباتية معتقة».

ثم لم أقل أي شيء آخر، لأنني لمحت قطاراً قادماً من عمق الغابة. لونه رمادي. طرازه قديم. يتصاعد منه دخان يتكاثف فوقه ويطير في أثره كسحابة فحمية.

راح الأخضر يضمحل، فيما أخذ الرمادي يفيض عن حدود القطار ويصبغ كل ما يحيط به. نظرت إلى

قضبان السكة الحديد للتأكد من أنني بعيد عنها بمسافة مناسبة. كنت أعرف هذا مسبقاً، لكن فجأة سكنني شك في كل شيء. خُيِّل إليّ أن حركة الآلة المتجهة صوبي أبطأ مما ينبغي، ثم اكتشفت أن هذا ليس خيالاً. بدا إيقاع العالم كله متثاقلاً مخموراً. أوراق الشجر تهتز ببطء. الحشرات والعصافير القليلة تكاد تكون ساكنة على الرغم من طيرانها. حاولت رفع يدي لرأسي، فشعرت بها تعاندني ولا تنصاع لإرادتي في تحريكها.

حين حاذاني القطار، احتجت إلى بعض الوقت لإدراك أنه لا يزال يتحرك ولم يتوقف كما توهمت. في داخله رأيت وجوهاً وجلة. بعضها يحدق شارداً في نقطة أمامه، وبعضها الآخر ملتصق بزجاج النوافذ، ينظر بعينين غائبتين. انطبعت ملامحهم وتعبيراتهم المخدَّرة في روحي، وأيقظت ألماً قديماً كامناً. كنت كأنما أعرفهم، لكن ليس بشكل شخصي.

أحسست أنني التقيت بمن يشبههم من قبل. من كانت لهم النظرة المجروحة والهيئة اليائسة نفسها. تعلقت عيناي بهم. كانوا - لحسن الحظ - غافلين عن وجودي، مغمورين بثقل لحظتهم. واصل القطار سيره البطيء غير عابئ بي أو بهم. بعد تردد نهضت عازماً على ملاحقته. كانت كل خطوة أخطوها للأمام مصارعة مع عبء يجذبني للخلف. قاومت وأضفت خطوة لأخرى لا لشيء سوى لرغبتي في مرافقة هؤلاء المتروكين.

بدأنا نقترب من حدود المدينة. بلغها القطار قبلي بطبيعة الحال. اختفت مقدمته عن عيني، فحاولت إسراع خطوتي كي أظل محاذياً لعربات المؤخرة. بدأت أحسب عدد العربات التي رأت السماء. حين خرجتُ أخيراً لضوء النهار لم يكن هناك من القطار سوى الجزء المجاور لي. معظمه تلاشى، وما تبقى منه من عربات خلفية راح لونه يبهت حتى امَّحى، ومعه انجلى الحجاب الرمادي عن الوجود. لم أدر ما عليَّ فعله، فأخذت أدور في الشوارع محاذراً النظر إلى البنايات. خشيت أن أشاهد عبر نوافذها ما قد لا يكون في مقدوري تحمله. تذكرت تعبيرات الركاب الذاهلة، فقررت العودة بحثاً عنهم. تمنيت لو أنهم نزلوا من القطار في غفلة مني. سرت مع خط السكة الحديد مجدداً.

داخل الغابة كانت الأجواء رطبة والضوء شحيحاً كالمعتاد. لم يكن هناك أثر لروح بشرية. في البداية لم أصادف شيئاً لافتاً للنظر، ثم عند تقاطع ما لمحت صغيرة تبكي. بدت في العاشرة تقريباً. شعرها قصير، مقصوص بانعدام تناسق، ونظرتها - عندما رنت نحوي - كانت جائعة. تعالى بكاؤها فارتج جسدها النحيل. شرعت في الحديث بصوت مبحوح. لم أفهم من كلامها شيئاً. كانت لغتها أعجمية خشنة الحواف. كفكفتُ دموعها وواصلتُ توسلاتها غير المفهومة. أشارت نحو اليمين، وتحمست عندما تحركتُ يميناً. تركتها خلفي محاولاً اكتشاف ما تحاول لفت انتباهي له.

كانت الغابة صمتاً تاماً. تفاديت الأغصان المتشابكة حتى وصلت إلى بقعة لاحت خالية في البداية، لكن حين دققت النظر أبصرت شابة تنسج ثوباً. كانت شلة الخيوط تتعقد منها، فتنغمس في فك تشابكها بصبر، ثم تواصل نسجها كأن حياتها معلّقة به. مثل الطفلة كانت ترتدي زياً لا يمكن تمييز لونه بدقة.

وصلني أنين قريب نسبياً، فخطوت صوب مصدره. في طريقي قابلت رجالاً متحلقين في دائرة يستقرئون خارطة رسمها أحدهم على الأرض، وآخرين يساعدون امرأة هدها التعب على مواصلة المسير، ونساءً جلسن كيفما اتفق بين النباتات. لم أفهم ماذا يجري، ولا من هؤلاء. باءت محاولاتي للتواصل معهم بالفشل. على عكس الطفلة لم يظهر أي منهم ما يدل على أنه سمعني أو حتى رآني. وجوههم جميعاً كانت مألوفة لي، ومع هذا ثمة حاجز لا مرئي كان يفصل بيني وبينهم.

واصلت البحث عن منبع الأنين. كان مبنى رمادياً حوائطه متقشفة، نوافذه أشبه بكوى صغيرة، تتشبث بقضبانها أيادٍ تستميت للحفاظ على موقع تصارعها عليه أيادٍ أخرى لا تفلح في لمس القضبان رغماً عن محاولاتها. درت حول المبنى فلم أجد له باباً. كان أقرب إلى صندوق حجري مغلق على من فيه، يشغل معظم مساحة مربعة خالية من الأشجار. قرب أحد جدرانه نمت شجيرات وردها أحمر متفتح وكبير. كانت مستندة إليه بوداعة أنستني أصوات الألم المجاورة. لمست

الورد للتأكد من وجوده، فانتقلت ليدي نعومته. نظرت لأعلى فبدت السماء زاهية الزرقة بلا سحب أو غيوم تشوِّش على لونها. ثم اختفت الأيدي المتشبثة بقضبان النوافذ، بل لم يعد للنوافذ نفسها وجود.

مثل الورد، اتكأث بدوري على الحائط مراقباً سماء متكتمة. ثم لم أطق البقاء في تلك البقعة للحظة إضافية. رجعت إلى حيث يُفترَض بالصغيرة أن تكون فلم أجدها. بحثت عبثاً عنها، ولمَا يئستُ اعتزمتُ مغادرة الغابة. بصعوبة تلمستُ طريقي إلى خط السكة الحديد. سرتُ معه حتى وجدت نفسي على أطراف المدينة. في الجهة المقابلة من دائرة الأنقاض المتنكرة في ثوب العمران لاحت لي ألسنة لهب متصاعدة من حريق هائل. التفتُّ خلفي فلمحتُ مَن صادفتهم قبل قليل يتطلعون مع آخرين إلى النار بحسرة مَن يراقب حياته تحترق على مرأى منه.

صار الحريق، بما يصاحبه من صهد ودخان وتفحم، مِن معالم المكان. لم أجسر على الاقتراب منه، ولم يجرؤ على الامتداد عن حدوده الأولى. لو شئت الدقة، كانت نيرانه ترتفع لأعلى حتى ليكاد من يراها يخالها تلامس السماء، لكنها لا تتسع أفقياً ولو قليلاً.

بعدها لم أرَ القطار مجدداً، كما لم أقابل أياً ممن رأيتهم قبلاً، ومع هذا كنت أحدس بوجودهم على مقربة. أكاد أشعر بأنفاسهم وأسمع أنينهم. أنظر بحسرتهم إلى لهب النيران، وأحاول استعادة حيواتهم

في داخلي.

ليس في جعبتي سوى تخمينات وتأويلات. وسيلة العاجز لترميم حطام الأحداث والبشر. المكان هنا حافل بالحكايات، إلّا أنها، كعادة كل ما هو جدير بالاهتمام، منقوصة ومبتورة. ومع هذا كانت تكتمل في رأسي. ليس تخميناً أو حدساً، بل اكتمال حقيقي في غنى عن الكلمات. انتقلت مشاعر كل ما ومن صادفتُ هنا إليَّ. احتلتني واستحوذت عليَّ. شعرتُ أنني كثيرون في كيان واحد.

أدركتُ هنا أن الأماكن إذا لم تقدر على حكي ذكرياتها ونقلها إلى آخرين عبر اللغة، ستبتكر طريقة ما لفعل هذا. والغابة - وما تخبئه في داخلها من مدينة مزدوجة وبشر هائمين - ماهرة في سرد ما يتراكم في سراديب عقلها، وماهرة أكثر في التواصل، دون كلمات، مع من يصل إليها، وفي تبادل خبراتها وتاريخها مع خبراته وتاريخه.

في عرف هذا الكون المخاتل، المشيَّد من ماء وضباب وأبخرة وغيوم، تشتهر الغابات بذاكرة حديدية تختزن كل شيء وتؤرشفه في أحشائها استعداداً لتسريبه في الوقت الملائم. بشكلٍ ما هي ذاكرة العالم وأرشيفه السري.

تنتظر داخل كون مصغر من أشجار تكوِّنها، واثقةً من أن هناك من سوف يبلغها يوماً، من سوف يأتيها محملاً برسوم ونصوص ذهنية متوارية في أعماقه، وفي أثناء

سيره عبر دروبها سوف يتبدد ضباب نفسه.

أما من سيتجاهلها فلن يبرأ منها أبداً. سوف يدفع مراراً ثمن رفضه استكشافها. سوف تتجسد له في مكان ثانٍ وثالث. متخفية في ثوب جديد كل مرة. متلاعبة بمكوناتها بحيث لا يحدس بأنه لمحها أو وقف على أعتابها من قبل.

لكن حتى من استكشفها وخطا في دروبها مثلي لن ينجو منها، سوف تنطبع في روحه كوشم النار.

أعرف هذا لأنها ترافقني أينما اتجهث. حلَت فيَّ بلا أمل في تخليص روحي من براثنها. حملتها داخلي مستمعاً لحكاياتها وهواجسها، مغلّفاً بعتمتها الخفيفة وضوئها المُشرَّب بخضرة ضبابية، ومحمولاً على غيمة من روائح يتمازج فيها شذا الأعشاب العطرية بعطن المياه الراكدة والأوراق المتحللة برائحة أخرى غامضة ذات طعم وقوام.

جبل الغيم

كان صباحاً شتوياً، ومع هذا لم أشعر بالبرد. أنعشتني نداوة الهواء، فرفعت رأسي لتأمل الجبل المجاور. من مكاني تحته لم أكن قادرة على الإلمام بكامل هيكله. قررت تسلقه لرغبتي في رؤية العالم بعينه. بحثت عن الطريق الصاعد إلى قمته. لم أتساءل من نحت درجاته وخشَّنها بحيث لا تنزلق الأقدام عليها. انغمست فقط في الصعود، لأكتشف أن المشقة المفترضة ليست جسدية بقدر ما هي عقلية.

كلما صعدت للأعلى غامت رؤيتي للعالم من حولي. خُيِّل إليَّ أن الأبعاد والظواهر الجغرافية يعاد تشكيلها. فالبحر في الأسفل ليس هو البحر، والغابة ليست بغابة، والسماء تختلف عن كل تخيُّلٍ ممكن لها.

جالت في ذهني فكرة أن الجبال أماكن للتجدد والولادة مرة أخرى، ثم كفت عن كونها مجرد فكرة. صارت واقعاً لا يني ينبعث كل مرة بشكل مختلف. مع كل درجة أصعدها كنت أولد من جديد. أتعدد وتتنوَّع حيواتي.

في لحظة ما كنت مالكة مقهى بالقرب من شاطئ صخري مرتفع. يصلني هدير الموج إذ ينكسر على الصخور فيعاود لجوءه إلى البحر، وتقتنص أذناي بقايا ضجة عربات مارقة بسرعة على طريق بعيد. بينما أعيد ترتيب مقهاي المرة تلو الأخرى، كنت أنظِّم ماضيَ

وأخبِّئ أسراري داخل أدراج محكمة الغلق.

في لحظة تالية رأيتني طفلة تجلس أعلى جميزة وارفة. تحتها ساقية تترقرق مياهها حين يباغتها شعاع شمس متسلل من مظلة الأغصان والأوراق، وفوقها سماء يغار أزرقها من أخضر داكن يهب الظل. كنت أتحرك من فرع إلى آخر محاذرة الوقوع. أختِّن الثمار. يؤلمني جرحها ويواسيني أنها لن تطيب دون تلك الندبة. ثقب صغير يسمح للهواء بالنفاذ للداخل، ويعلِّمني أن الألم ضريبة النضج، فأنتظر آلامي الخاصة طامعةً فقط أن تكون وليدة يدٍ متعاطفة معي لا حاقدة عليّ.

أتضايق حين أتذكر أن أبي لم يأتمنني في البداية على هذه المهمة. وأفرح لاستعادة دهشته إثر تذوق أول ثمار ختنتها الموسم الفائت. أقفز من فوق الشجرة. أتحسس الأرض أسفلها، وبعصا رفيعة أخط حروفاً وأشكالاً تبدو كما لو كانت تأتيني من عالم آخر.

توقفتُ لالتقاط أنفاسي، وحين عاودت التسلق وجدتني وُلِدت مجدداً كهاربة لا مستقر لها. أرتحل على دروب خطرة. أستعير من الأفاعي قدرتها على تغيير جلدها، ومن الحرابيّ موهبتها في التلوّن والتماهي مع الوسط المحيط.

تسارعت دقات قلبي كأنما أركض هاربة بالفعل من مطارِد محنَّك. انتبهت إلى أن كل الأماكن التي تحضرني في تجسداتي هذه منعزلة وتكاد تكون خالية من سواي.

لم أجد تفسيراً لهذا. عصرت مخي في محاولة الإجابة عن تساؤل: هل كان هناك آخرون غير ذواتي المفترضة؟ وتمثّلت إجابتي في أن الآخرين مثلوا فقط كاحتمال لا سبيل للتأكد منه: زبائن منتظَرين للمقهى، أب غائب تستدعيه أفكار الطفلة، مطارِد خارج مشهد الهروب. كانوا مغيّبين عن لحظاتي المستعادة، لكنهم موجودون على حافتها. أما الآن فقد «صفصف» الكون بكامله عليّ.

أخذتني أفكاري، فلم أدرِ بنفسي إلّا وأنا فوق قمة الجبل حيث قلعة مهيبة تواجهني وتفتح لي ذراعين وهميتين لاحتضاني. كانت تحتل معظم المكان. أمامها ساحة مسوَّرة وخلفها حقل صبار تتصدره شجيرات أوراقها مدببة، تليها دائرة مزروعة بصبارات بيضاوية صغيرة، تنبعث منها أبخرة تعبِّق الهواء برائحة نفاذة وتدمغه بلون مائل للزرقة. كلما استنشقت الأبخرة وتمعنت في زرقة تُلوِّن بها الهواء، أحسست بخدر يسري في جسدي وتنميل في عقلي.

بدت الغيوم داكنة، رمادية تميل للسواد، أطرافها محددة بفضي لامع. كنت أراها تمر جواري. تطفو بالقرب مني. أمد يدي للقبض عليها فتراوغني. أتخيلني أخطو فوقها، أقفز من غيمة إلى أخرى، فتنثال مني ذكريات عجيبة ليس في مقدوري موضعتها في مكانها المناسب، إذ لا أعرف إن كانت تنتمي إلى تاريخي الشخصي أم إلى التاريخ الجمعي لجماعة كنت أنتمي

إليها.

لم أهتم. تقتُ إلى مضاعفة حساسيتي تجاه كل ما حولي. اشتقت إلى الغرق في لحظتي الحاضرة وإن لم أتوصل إلى سبيل محدد لتحقيق هذا الهدف.

حلَّ المساء فجأة. توسط السماء قمر مشتعل. بدا كقطعة نار برتقالية، لهبها انعكاس لنيران اشتعلت وحدها في مشاعل فوق أسوار القلعة، فجلبت معها دفئاً وصوت طقطقة يؤنس المكان، وينبهني إلى أن الصمت كان مطبقاً قبله. على صفحة السماء دارت غربان في حلقات قبل أن يبتلعها ثقب أسود، فلم تخلِّف أثراً.

تماوج الهواء أمام عينَيّ، وحرَّك ظلال ألسنة اللهب حولي. شعرت بعقلي ينسحب مني، يختفي داخل دهاليز معتمة تاركاً لي مراقبة الظلال المهتزة. راقتني فكرة عيش حياة من هلوسات متتالية، لا أهتم معها بالفرق بين الواقعي والمتخيل، أو بين الوهم والحقيقة.

فكرت في أن الجنون هو الغياب التام للموجودات الخارجية والغرق في الذات، ثم غيّرت رأيي. قلت بصوت مرتعش: بل هو الحضور المكثف للعالم بأدق تفاصيله وأبسط همساته مع تلاشي الذات. الجنون قلب راءٍ لما يعجز الآخرون عن رؤيته. عجز يقودهم إلى تكذيب الرائي ووصمه بفقدان العقل.

لكن أين الآخرون؟ أي عاصفة اقتلعتهم؟! أي قيامة ابتلعتهم في أحشائها؟!

خطرت ببالي كلمات مثل الحب، الكراهية، الجسد،

فاكتشفت أنّي فقدت القدرة على فهم معانيها، ونسيث كيف تتشكل الأفكار في الذهن. صار عقلي فارغاً. أضحى وعاءً خشبياً خرِباً تتعفن فيه الأفكار وينخره السوس.

شعرت أنّي في خصومة مع الكون. لم أفقد عقلي كما تخيلت، بل العالم هو ما جُنّ وأمعن في جنونه. لم يعد هناك شيء كما كان. وخطيئتي أنّي رأيت. أنّي عبرت الخيط الفاصل وأبصرت الوجود عارياً مهلوِساً وبلا معنى.

رحت في سبات أشبه بغيبوبة. فتحت عينَيّ مع شروق الشمس. كان القمر المشتعل قد غاب كأنما لم يكن. عادت للسماء زرقتها وللسحب بياضها الحليبي. بدا العالم كأنما وُلِد من جديد. عالم بكر خالٍ من الآلام والندوب.

درتُ في المكان للتأكد من أنه لا يزال على حاله. حاذرت الاقتراب من حقل الصبّار. انتبهت إلى المناظير المقرِّبة المثبتة على مسافات متقاربة فوق السور المحيط بالقلعة. اقتربت من أحدها، ونظرتُ عبره، فرأيت مدناً مدمرة بالأسفل. خرائب وبقايا أسلحة صدئة وحافلات تركت مئات الطلقات آثارها عليها. خمنت أن حرباً جرت وقائعها في الجوار. انتقلت من منظار إلى آخر، ومع كل منها كنت أبصر أطلالاً وركاماً.

«لم تكن حرباً واحدة».

قلت لنفسي محاولةً التدقيق أكثر في تفاصيل ما

أراه.

واجهتني حقول محروقة، بساتين أشجارها مجرَّفة، دخان يتصاعد من حرائق بعيدة، صحراء، وخلاء يحجبه السواد. غطَّت رائحة الحريق على ما عداها من روائح. تذكرت بلا مقدمات جغرافيا المنطقة كما رأيتها أمس قبل صعودي إلى قمة الجبل. لم يعد هناك أثر للبحر ولا للغابة الممتدة. استحوذ عليّ إحساس بأن الجبل نفسه غير موجود إلّا في خيالي.

ابتعدت عن السور، واتجهت بكامل إرادتي صوب حقل الصبَّار. ارتميت داخل الدائرة المتوسطة له بصباراتها البيضاوية. لم أنتظر حتى يسري مفعول أبخرتها في جسدي. قضمتُ جزءاً من واحدة منها، ومضغته. وحين بدأ عالمي في الاهتزاز والتماوج، ارتسمت على شفتَيّ ابتسامة مطمئنة. ثم لم أعد واعية بكنه ما أختبره. راقني الاستسلام له والغرق فيه. الرقود في قاع ما بينما تنهمر عليّ شلالات وفيضانات من صور وخيالات ومشاهد راكضة. لا تتجسَّد أمامي، بقدر ما تجري داخلي. تتمسرح في ثنايا عقلي المشحوذ وحواسي المسنونة. في لحظة بعينها أحسستُ أنّي لم أعد فوق جبل، بل – بطريقة ما – صرت فعلاً في أعماق نهر منصتة إلى أدق خلجاته ومغمورة بذكريات لا سبيل للهرب منها.

أوديسا الفراغ

أول وآخر ما أتذكره أنه في مكان ما في هذا العالم المخاتل كان ثمة جبل وغابة وبحر، وأنني تهت بينها. لا أعرف أصلاً إن كنت أنا الشخص نفسه الذي وقف حائراً للحظات بين الخيارات الثلاثة. أو ربما أنا إياه، لكن هذه الذكرى برمتها محض اختلاق، وسرعان ما ستتلاشى كما تلاشت أمنيتي الحارقة بالانقسام إلى ثلاث ذوات تتجه كل واحدة منها وجهة مخالفة للأخرى، قبل التلاقي عند نقطة ما، والاندماج في كيان واحد محمَّل بخلاصة خبراتها ومشاهداتها، حتى إن لم يعِ تفاصيل ما مرَّت به الذوات المكوِّنة له.

فيمَ كنت أفكر لحظتذاك؟

ربما رجوت أن يكون ما أراه أمامي سراباً، ولهذا فقط بزغ اسم «جنية السراب» في ذهني متحدياً اعتلال ذاكرتي ومتغلباً عليه.

صارت تلك الجنية فجأة هاجساً مستحوذاً عليَّ. انبعثت أمامي كطيف لا يمل من خلق نفسه وتبديدها قبل إعادة خلقها من جديد. بدا كل ما يخصُّها ساطعاً في ذاكرتي وسط محيط شاسع من النسيان.

لا تكف رفيقتي الطارئة هذه عن التلاعب بعقلي وعينيَ. رأيتها كطبيبة ساحرة ومتحولة أبدية تقودني إلى المجهول. بلا ذاكرة، ولا ذكريات تستعبدني أو تراوغني، كنت في الفراغ التام، غائصاً في فوهة العدم،

تائهاً في أحشائه. مجرد فكرة لحظة انطفائها. تثاؤب ضجر بين غفوتين. العالم من حولي ضباب وغمام وسديم.

ناداني صوت مغوٍ وهمس في أذني بأغنية كئيبة مدوخة تنتمي إلى ما قبل اللغة والكلام والموسيقى. كانت كآبتها مكمن سحرها. كآبة تزلزل الفراغ الذي هو أنا.

كنت مدركاً لتلاشي كل ما سبق وعرفته أو تآلفت معه. غابت ذاتي وامّحت فلم أعرف سوى أنني وقفت فوق صخرة زلقة وألقيت أناي القديمة في هاوية بلا قاع. كان العالم من حولي داكناً فحمياً، وكنت محض كلمات طائرة، في طريقها للذوبان أو بالأحرى للمحو. لم أبصر شيئاً سوى بقع لونية من الأخضر بالغ الدكنة حتى ليكاد يبدو أسود. أنا نفسي صرت لوناً لا يرسو على حال.

مكثت هكذا فترة لا أعلم مداها. رأسي كان مزدحماً بتفاصيل شائهة مبتسرة لا تكوِّن ذاكرة كاملة ممتدة. للدقة، لم أكن أميز لي رأساً من جسد، لكنني كنت مدركاً لازدحامي وفوضاي الداخلية. كأن الفوضى صارت ظلي ودائرة تؤطِّر وجودي.

أفقت على وجودي في عالم «أوفيدي» لا يكف عن التحول والانمساخ. جالساً في فُلك تؤرجحه الأمواج، رحت أراقب خط الأفق حيث يلتقي البحر بالسماء. انتبهت إلى جسد تلبَّسني أو تلبسته، وإلى اختلاف

درجة الإضاءة على وقع حركة الشمس والغيوم.

بطريقة عصية على التفسير، أدركت أن عليَّ أن أتيه بينما أطارد من أطلقت عليها لقب «جنية السراب»، وأحلم بالإمساك بها والقبض على رقبتها ثم الاحتفاظ برأسها في صندوق زجاجي يليق به.

حدثني قلبي بأن تلك هي الطريقة المثلى لامتلاكها وإقناعها بالكف عن اختراع الأوهام والأشكال العائمة في الهواء والمحلِّقة عند خط الأفق.

لست «عوليس» أو الملّاح التائه أو سندباد البحري، أنا فقط محكوم بتيه لا نهائي إلَا إذا اقتنصت رأس غريمتي السرابية.

«اكتب لي! مهري كلمة منسية، كن ماهراً بما يكفي للعثور عليها والنطق بها بينما تكتبها!».

أصغي إلى هذه الجملة المهموسة، فتخايلني بلا انقطاع. أسمع قهقهات ما إن يخلب لبي فخ نُصِب لي، وأكاد أحدس بغيظ مكتوم إذ أنجو من فخ آخر.

أينما ألتفت أبصر جُزراً صغيرة كنقاط تزركش صفحة البحر التركوازية. الجزر تسلبني عقلي، تفقدني اتزاني وتفتر إرادتي: الجزيرة الجبل، والجزيرة الهضبة والجزيرة السهل المنبسط. كيف تقاوم الأخيرة هيجان البحر وصخبه؟! كيف تحافظ على نفسها من الغرق فيه؟!

في هذا السديم لا أقابل إنسياً. يسكنني دوار أبدي. أشعر أنّي أطير. أعلو فوق السحاب بحيث أراه تحتي،

يكاد يحجب فُلكي عن عينيَ، فيما أراقب العالم من علو شاهق.

من هذا الارتفاع يقيم سحاب ناصع البياض فوق جزيرة كبيرة نسبياً. يسكنها ويتوجها فتتلاشى المسافة بينهما. جزر أخرى أصغر تتوج كل منها سحابة واحدة. ويعبر ضباب خفيف ليطفو فوق الجزر بغطائها السحابي. ثم يتلاشى كل شيء ويغيب. يتفتت البياض وينحلّ إلى لا شيء.

أسمع صوتاً كالفحيح يردد: «لن تجدني على أكثر الخرائط تفصيلاً، ولن تعرف لي مكاناً أو شكلاً. أنا فكرة البحر عن نفسه، وشوقه الموجع للثبات وعدم الاهتزاز».

يصمت لبرهة قبل أن يعاود فحيحه: «لن تجدني إلّا لو أضعت نفسك، إلّا لو تهت عنها وأنكرتها».

ما إن يحل الصمت التام حتى يُخيَّل إليَّ أن البحر الهائج يتحول إلى بحيرة ثم نهر أو مستنقع قبل العودة لسيرته الأولى. يتكرر الأمر حسب أمزجة غير مفهومة، كذلك لا يكف لونه عن التغيّر.

ثم طغى البياض، ووجدت نفسي أخطو فوق طبقات هشة من الجليد، لكنها لا تنكسر تحت قدمَيَ ولا تذوب. سرت محدقاً في بياض الثلج حتى اسودّ لونه ولم أعد قادراً على الرؤية. درت حول نفسي في دوائر مفرغة. أقمرت وغابت عني الاتجاهات. ارتميت على الجليد ولدهشتي تسرب منه دفء مفاجئ إلى جسدي. غبت عن الوعي، ولمّا أفقت كنت في عرض البحر مجدداً،

ولكن في سفينة ملأى بمسافرين وبحارة. تهت وسط روادها منصتاً إلى ما يحيط بي من أحاديث متداخلة.

كان أحدهم يحكي كيف صادف السفينة الشبح عند رأس الرجاء الصالح ذات سفرة بعيدة.

«الهولندي الطائر».

قال بنبرة من يدرك أن عبارته تغني عن أي تفصيلات. صمت لبرهة، ثم عاد لشرح أن أشباح البحارة كانت تمد أيديها بخطابات متوسلة أن يحملها العابرون إلى الأهل والأحباب، فتبتعد السفن الأخرى خوفاً من توسلات الأشباح وجموح سفينتهم.

حكى آخر عن شلالات كأنما تصب من السماء إلى البحر صادفها يوماً على متن سفينة قراصنة كان منهم، وعن إخفاقهم في تفاديها لأنهم أينما اتجهوا كانت تتجسد أمامهم مجدداً، وحين يئسوا واتجهوا بسفينتهم نحوها متوقعين أنهم هالكون بالضرورة فوجئوا بأنها وهمٌ عبروا من خلاله كما يعبرون بهواء.

كأنما بفعل كلماته انبثقت أمامي على مرمى البصر صخرة بازلتية هائلة. طافت في مسار متعرج، ثم راحت تدور في حلقات غير مكتملة. انعكست أشعة الشمس على البازلت الأسود المصقول، فتولّد بريق يخطف الأبصار.

دارت الصخرة وتأرجحت، لكن ما إن دنونا منها حتى استحالت بقعة ضبابية كالحة البياض، ثم تبخرت مخلفة بخار ماء متطاير. أبحرنا لمسافة لم أقدر على

تحديد مداها. عبرنا جزراً قاحلة وأخرى خضراء وفي النهاية وصلنا إلى شاطئ جزيرة تكسوها غابات استوائية لم أرَ لأشجارها مثيلاً من قبل.

أنزلتني السفينة وحدي على الشاطئ وغادرت دون تبرير من طاقمها أو ركابها. تلكأت لبرهة قبل البدء في استكشاف محطتي الجديدة. كانت الحشائش تكاد تصل إلى مستوى صدري، وجذوع الأشجار وسيقانها مغطاة بفطريات خضراء أو مكسوة بنباتات متسلقة زهورها صفراء وأرجوانية. بدت الزهور، بشكلها الجرسي، مخيفة بطريقة مبهمة.

انتبهت إلى أن الجزيرة ليست مستوية. واصلت طريقي حتى وجدت نفسي فوق مرتفع قلّت فيه كثافة الأشجار بشكل ملحوظ. دققت النظر فاكتشفت أنّي وسط أطلال تكاد تخفيها النباتات. فما ظننته، في البداية، تكوينات نباتية غرائبية على هيئة مستطيلات أو مربعات أو قباب، اتضح أنه ما تبقى من مبانٍ مغمورة بنباتات متسلقة غطتها بالكامل.

ارتميت فوق مقعد حجري مختفٍ، هو الآخر، خلف أخضر النباتات. رحت أحدِّق مشدوهاً في كل ما حولي. لمحت ما عرفت فيه باب قلعة تقع في مواجهتي، فاتجهت إليه. حاولت إزاحة الأوراق والأغصان المتسلقة من فوقه كي أتمكن من فتحه، فلم أفلح. حل الظلام وساد الصمت. غفوت على أعتاب القلعة، وفي الحلم رأيت المكان المهجور وقد عاد لأوج مجده. كان

ثمة بساتين وحدائق مشذبة ومعتنى بها، وطرقات مبلطة بأحجار خشنة ومقاعد رخامية مثبتة في الحدائق وتحت الأشجار على جانبي الطريق يفصل بينها مسافات محسوبة.

لم يكن هناك أثر لبشر أو حيوانات أو طيور، فقط شجر وحجر. بين المباني المهيبة كانت القلعة تشع كحجر كريم. لم تكن مغطاة بالنباتات المتسلقة. اقتربت من بابها فانفتح بمجرد وقوفي أمامه. دخلت إلى بهو مبلّط برخام أسود، وفي الحال رأيتني طفلاً أعدو هرباً مما لا أعلم، قبل أن أنهمك في اللعب بين جدران متهدمة.

لم يكن الطفل يشبه فكرتي عن ذاتي. شردت عنه لوهلة، ثم عدت لأراه باكياً بجوار صخرة غير منتظمة الشكل.

انتقلت إلى صالة مستطيلة بها طنافس وسجاجيد غزيرة الوبر، فرأيتني في العشرين من عمري أحفر الأرض بلا كلل وقد تبلل وجهي بالعرق. من وقت إلى آخر أنزل للحفرة وأغرز قدمَي فيها لتسويتها، ثم أصعد لأعاود الحفر. أزعجني تفانيَ في مهمتي دون معرفة سبب انزعاجي.

على الرغم من خلل ذاكرتي، كنت متأكداً من أن ما أراه لا يمت بصلة إلى ماضٍ عشته، ولولا يقيني غير المبرر هذا، لظننت أن القلعة مرآة تعكس مشاهد ومحطات مما سبق ومررت به. بانتقالي من صالة

لأخرى ومن دهليز لآخر، لم يعد الأمر مقتصراً على ماضٍ مفترض أو حقيقي، إذ رحت أراني كهلاً ثم شيخاً في مواقف لا تقل عبثية: مرة أنشغل بجمع أوراق شجر ذابلة مبعثرة داخل دروب الغابة وممراتها، وأخرى أحمل دورقاً أملؤه بقطرات مطر وسرعان ما أفرغه ما إن يمتلئ عن آخره، ومرة ثالثة أتدحرج إلى ما لا نهاية من فوق تل.

لم أعرف أهذه نبوءات، أم أضغاث أحلام، أم تخاريف عقل منهك. ثم تذكرت جنية السراب، وانتبهت إلى أنني كنت قد نسيت كل ما يخصها، وعندئذ فقط خمنت دورها في ما يحدث لي.

لا بدّ أن غريمتي الزئبقية قد طورت ألاعيبها، وبدلاً من مخايلتي بأشكال سرابية خارجة عني، قادتني للتعثر في ذاتي والوقوع في فخ مراياي العاكسة لأنوات مخادعة تتواطأ معها ضدي. شغلتني جنية السراب عنها بي.

فكرت في القضاء على نسخي الزائفة المترائية لي في كل ركن من أركان القلعة. بيد مشرعة كالسيف رحت أمزق الفراغ المواجه لي ممزقاً معه نسخي الماضية والآتية. ومع إدراكي أنها محض وهم وخداع، فإن الحزن كان يعتصرني والألم يفتك بي. كنت كأنما أقتلني وأمثِّل بجثتي. لعنت جنية السراب ألف مرة، ولعنت نفسي أضعافها. حين انتهيت لم يكن هناك أثر لصوري ولا لغرف القلعة ودهاليزها، ووجدتني مرة أخرى نائماً

فوق مقعد مغطى بالنباتات في مواجهة قلعة لا تكاد تبين من خلف قناع أخضر بدا شيطانياً فجأة.

كنت مرتعشاً خائفاً. لا أعلم إن كان من مزّق النسخ المترائية داخل القلعة هو أنا أم نسخة زائفة خدعت كينونتي الأبدية واستبدلت بها وهماً سيظل لعنة مسلطة فوق رأسي. غير أن جنية السراب كانت رؤوفاً بي. لم تتركني لهواجسي وظنوني. تبدت لي على هيئة طيف أنثوي باهر. كانت دليلي للخروج من متاهة الجزيرة. خطوت وراءها في الممرات والدروب حتى وجدتني على الشاطئ. بدلاً من اغتنام الفرصة للتملي في تجسدها النادر هذا في صورة أقرب للبشر، التفتُّ نحو الخلف فإذا بالجزيرة فراغ تام. لم يكن هناك سوى شساعة البحر. ملجوماً بالدهشة بحثت أمامي عن جنية السراب فوجدتها تبخرت مخلفة وراءها غيمة خفيفة من بخار الماء. لم يبقَ منها سوى همس لي بأن أسجل ما مررت به، وإلّا سيتلاشى مع كل ما يخص ذاكرة رحلتي هذه.

كنت مجدداً في الفلك الصغير الذي بدأت به أوديستي. لم أعرف سبيلاً للتدوين في هذا الفراغ اللامتناهي. عزمت على ملء فلكي بأحجار يشير كل منها إلى حدث من أحداث إبحاري. لم أكن واثقاً من أنّي سأتذكّر مستقبلاً علامَ يدل كل منها، ومع هذا لم أتخلَّ عن فكرتي. كانت كل ما أستطيعه في هذا الصدد.

في محطة لاحقة، وعلى جزيرة غير مأهولة، خطر

لي حين رأيت حجراً حاداً كسكين، أن أستخدمه للتدوين على جسدي. أمسكته وهممت بالحفر به على ذراعي، ففوجئت بأن لا ذراع لي. كنت كلما غرزت طرفه الحاد في أي جزء من جسدي، أفاجأ بتلاشي هذا الجزء، أو للدقة أكتشف أنه كان غائباً منذ البداية. لم أعرف أين تبدأ ذاتي ولا أين تنتهي، بل لم أعرف إن كان لي ذات من الأساس أم أنني مجرد فكرة عابرة سرعان ما غمرها النسيان. حيّرني أن أكون على وعي بذاتي على هذا النحو، على الرغم من افتقاري إلى التجسد في شكل وقوام.

بدا العالم من حولي ثقيل الوطأة بسمائه وغيومه وجباله الماثلة من بعيد على جزر لا أعلم إن كنت سأبلغها أم لا. كل شيء كان يجثم على وجودي الذائب، ويضغط عليه. تراءى لي الهواء ثقيلاً والماء معتماً، وكنت أنا خالص الشفافية. الكون بكامله يخترقني. ينفذ من خلالي ويطوحني يميناً ويساراً. يبعثرني ويتلاعب بي.

لم يحضرني من تفاصيل أوديستي في هذا البحر أي شيء. خبت ذاكرة حاضري مستبقية فقط شعوراً غامراً بالقلق والخسران. في المقابل، سطعت دقائق ما عايشته في الماضي. لازمني إحساس التأرجح. شعرت أنّي مهدد – كل لحظة - بالسقوط من أبعد نقطة ممكنة عن الأرض. كأن الجاذبية الأرضية تضاعفت وأنا مشدود لها لكن دون أمل في ارتطام بالأرض والاستقرار عليها ولو

جثة هامدة. لم أعرف كيف يمكن لهذا الشعور أن يتملكني مع غياب الجسد، ولم أهتم.

رأيتني أخطو في طرقات ملتوية وأحاول التواصل مع من حولي فيخذلني تبلبل الألسن. كل فرد ينطق بلغة مستغلقة على الآخرين. أطوف في الشوارع وأراقب الأرصفة وأقدام السائرين عليها، ثم ينقطع خيط ذكرياتي دوماً بوقوفي فوق صخرة زلقة مستعداً للقفز من علٍ. لا تشهد ذاكرتي على القفزة. تتوقف قبلها. يتجمد جسدي في وضع الاستعداد، فلا أعرف هل جرؤت على الفعل أم تخاذلت قبله بثوانٍ! لا أدرك علاقة هذا بما أنا فيه، لكنّ إحساساً مبهماً يتملكني بأن قفزتي كانت صوبه.

أفقت على عتمة شاملة، اختفى معها إحساسي بالعالم من حولي. غاب وشيش البحر وصخب ارتطام أمواجه، وتبخر تغريد النوارس والطيور. وحلت محله تأوهات وصرخات وذبذبات موتِّرة. مع الأصوات انبعثت روائح كادت – من فرط قوتها - تسلبني حاسة الشَّم. لم تكن كريهة بقدر ما كانت مُعَذِّبة. ميزت منها روائح خوخ وصندل وشواء وصمغ محترق، لكن بينها كان ثمة رائحة نافرة كأنما ترفض الامتزاج بما سواها. كانت مألوفة – رغم غرابتها – ومع هذا لم أفلح في تحديد ماهيتها. راحت تستثير ذاكرة معتلة، ترجها وتوجعها دون أن تشفيها وتَجْبُر عظامها.

حلقت في عتمتي محمولاً على الروائح والأصوات،

ثم انبثق نور باهر وأضاء وجودي كله. مع انبثاقه ارتطمتُ بقوة بأرض صلبة. من أوجاعي ورضوضي انتبهتُ إلى أنّي قد استعدت جسدي. بقيت ممدداً دون حراك لفترة، مستعذباً الألم الجسدي ومغمضاً كي لا أعرِّض عينَيّ لوهج الضوء بعد اعتيادهما الظلمة.

في النهاية، حين فتحتُ عينَي، اكتشفتُ أنني في صحراء، ممدداً بجوار صبارات مختلفة الأشكال والأحجام. بقوة الإرادة وحدها تمكنت من الوقوف، والخطو مبتعداً عن البقعة التي أفقت فيها.

ما كدت أبتعد قليلاً حتى خايلتني واحة متلألئة بالأخضر. لم أعرف هل اقتربتُ منها أم اقتربت هي مني. وجدتني على أعتابها في لمح البصر. كانت الأشجار المسوِّرة لها متلاحمة بطريقة تدفع للظن باستحالة اختراقها، لكن حين تفحصتها بإمعان، فوجئت بثغرة تسللت منها.

في الداخل، بدت الصحراء الخارجية كأنما لم توجد قط. كأن الكون بأكمله هو هذه الواحة. لاحظت كثرة أشجار الجميز. كدت أتوه داخل بستان الموز، وحين خرجت منه وجدتني على ضفة نهر ثائر، وعلى الضفة الأخرى كون من حجر: جبل وصخور ومنحوتات، لا تكشف عن تفاصيلها، لكنها تخبر الناظر أن الأحجار هي بدء الكون ومنتهاه.

غمرني إحساس أني أقتفي أثر شيء ما دون القدرة على تحديد كُنهه. عزمت على مواصلة البحث كأن

وجودي كله معلَّق به ومعتمد عليه. ثم أشرقت في عقلي فكرة أن بحثي ينتهي هنا، فما تهث خلفه، وما يمنح لحياتي كلها معنى يقبع على الضفة الصخرية. لم يكن ثمة دليل على هذا، لكن إيماني به كان راسخاً كأن معرفة علوية وُضِعَت في قلبي، وقادتني صوب هذه القناعة.

قلت سأمكث في الواحة إلى أن تحين اللحظة المناسبة للعبور. مع توالي الأيام استنتجت استحالة الأمر. لاحظت رهبة يتحدث بها من يسيرون في الطرقات وهم يشيرون نحو الضفة الحجرية. لم يكن في مقدوري فهم لغتهم، غير أن لغة الخوف لا تحتاج إلى ترجمة. معظم الوقت كنت غافلاً عنهم غارقاً في ذاتي، ومع هذا كنت أنتبه كلما استولى عليهم هلعهم. رعشة إثارة ويقظة كانت تسري في داخلي ما إن تكتسي ملامحهم بعلامات الخشية والوجل.

لم يُبدِ أحد منهم اندهاشه من وصولي أو يفطن إليه. كأنهم جميعاً غرباء، ووصول غريب جديد ليس حدثاً يستدعي الانتباه. بدت الواحة كمعسكر تجميع، كمحطة مؤقتة يلتقي فيها الغرباء والهائمون على وجوههم.

بمتابعتي لأهلها خلسة، لاحظت أنهم لا ريب غير غافلين عني، وإن كانوا يتجنبونني لسبب يخفى عليّ، فتحاشيتهم بدوري.

بعد فترة، لم أعد منشغلاً بهم ولا بمخاوفهم. عدت لتوحدي وللجلوس بالأيام على ضفة النهر، محدقاً

صوب ضفته الأخرى حتى تغيم تفاصيلها أمامي ولا أكاد أرى شيئاً. ذات يوم هبّت عاصفة. وقفت دونما تفكير فقذفتني الريح بعيداً عن موقعي. بدت الأشجار كأنما ستقع منكسرة، وراح النهر يصطخب كما لو كان بحراً. لحظتذاك تذكرت «جنية السراب» وقدرتها الشيطانية على التحول والتحويل. صليت في سري أن تصيِّرني ريحاً تحيل الواحة إلى فوضى تامة، وتطير نحو الضفة الحجرية محولةً إياها إلى دوامة ترابية، قبل أن تستقر هناك عند سفح الجبل المترائي لي من بعيد.

أدركت أنّ عليّ استجماع قواي، وحشدها. معرفة تاريخي ورتق ثقوب ذاكرتي. وبالأساس سرقة قدرات جنيتي السرابية والتماهي معها. لم أعرف سبيلاً لهذا، فشغلت نفسي بمحاولة استكشاف أعماق الواحة. كنت أنطلق من النقطة نفسها على الشاطئ. أعلِّمها بحجر صوان ضخم. أحرص على سلوك الدرب ذاته، ومع هذا كان يقودني كل مرة إلى وجهة مختلفة. شككت في قدرتي على تمييز معالم طريقي وسط الأشجار والبساتين. بدا هذا آمناً أكثر من مواجهة احتمال تلاعب الدرب بي.

الغريب أن طريق العودة كان لا يطرأ عليه أي تغيُّر. ما إن أدير ظهري لوجهتي النهائية بادئاً رحلة الإياب حتى أجد نفسي في الطريق الذي سلكته منذ أول مرة. لم أجرؤ قط على النظر خلفي بينما أسير قاصداً نقطة البدء.

كنت أنتظر يوماً أكف فيه عن الرجوع إلى بقعتي المفضلة على شاطئ النهر. في قرارة نفسي عرفت أنه آت لا محالة ومع هذا باغتني مجيئه حين انتهيت – ذات أصيل - إلى منطقة خلاء خارج حدود الواحة، فخايلني من بعيد مشهد أبخرة كثيفة تتصاعد من بحيرة ما. من مكاني لم أستطع حتى التأكد من أنها بحيرة، خاصةً أن السائل الموجود بها بدا براقاً بدرجة لا يمكن للماء أن يصل إليها. خطر لي أن أستدير وأهرب على درب عودتي المعتاد، لكنني فوجئت باختفائه ووجدتني أخطو إلى الأمام رغماً عني. كان ذهني فارغاً وأعصابي مشدودة.

ابنة السراب

أعيش في الفراغ اللانهائي. تنعشني الامتدادات الخالية من البشر ومن يشبههم. حين يظهرون أتسلى بالتلاعب بأبصارهم، وبالتحول من حال إلى حال. أكون صخرة طائرة في الهواء، شلالاً يندلق من السماء للبحر، جبل جليد يخفي خط الأفق عن بحارة يقتلهم الحنين إلى اليابسة.

في أوقات فراغي أصير ما يحلو لي: شجرة، عصفورة، نمرة جبلية، بقعة ماء على طريق مهجور، أو واحة في صحراء هي الكون.

لا اسم لي ولا هوية حتى لو ألصقوا بي آلاف الأسماء والهويات. الكثرة – في حالتي – تعني الانتفاء. الهوية تتشكل في الثبات واليقين، وأنا عدوة الثبات واليقين. أنا المتقلبة الملتاثة الساحرة المتحولة. من لا وصف لها حتى ولو استرسلت في تعداد أوصافها، من لا شكل لها حتى لو تدثَّرت بآلاف الأشكال.

الشكل يقتلني، ثباته يملأ ليالِيَ أرقاً. يدفعني لتأمل مفزع لذاتي. ولأنني لا أملك قوة الربّات ومهارتهن، فإن التحول أقرب ما يمكنني بلوغه صوب طموحي المستحيل.

أوجد في الطرقات المهجورة، في الأماكن الغائبة عن الخرائط. في البراري والصحاري والمحيطات. في أماكن الخفاء والأسرار. أقطن في أحلام الآخرين، بل أنا من

يشكلها ويضبط إيقاعها. أحدس بما يخبئه الحجر من هشاشة داخل صلابته، وما تهمس به الأرض الضاجة بغرور من يخطون فوقها. يصلني أنين الجمادات وضحكات الأشجار وصراخ الريح.

الخلاء يناسبني إذ يتيح لي إمكانية هدم نفسي وإعادة خلقها بلا انقطاع. والعراء يلائمني لدرجة يمكنني معها قول إنه أنا. أنا كل شيء، لذا أنا لا شيء.

أنا الطريق والقلاع المهجورة والبيوت المتهدمة. أنا نباتات متسلقة تكسو وجه العالَم. نهر لا يستقر على حال. بحر هائج لا تحتويه خرائط. معبد منحوت في جسد جبل. أنا الجبل، والقرية المختبئة داخله، والتماثيل المنصوبة حوله وفي ثنايا هيكله.

أنا اللاشكل في عصيانه السرمدي على الانحباس في شكل نهائي محدد ووحيد. أنا كل الأشكال المؤقتة والمتلاشية في ما عداها.

هذا الكون المخاتل أناي. وهم في وهم. سراب داخل سراب. «حلم في ثنايا آخر». وأنا قابضة على جوهر هذا الوهم، دون قدرة على وضع يد الآخرين عليه وتنبيههم لحقيقته. الحقيقة؟! مجرد النطق بهذه المفردة خيانة لديانة الأوهام التي أعتنقها، فأنا غير قادرة إلّا على التلويح بالوهم، والتماهي معه، أو ربما اختراعه. صرت لا أعرف دوري، ولا ما أنا عليه. ربما لهذا أتخفى خلف الكلمات. أبعثرها وأتلاعب بها لكونها قناعاً ناجعاً مجرباً.

هذا ما تعلمته من مراقبة ما تقوم به ربّتي، ربّة الطلاسم والأحاجي، تلك الصامتة الأبدية، المغرقة في الإلغاز والإبهام. الوحيدة القادرة على قهر تحولاتي بتعددها. تنوعاتها وانقساماتها وانعكاساتها تشعرني بالضآلة. حجرها يضرب أثيريتي في مقتل. أقول لنفسي إن الأثير أكثر رسوخاً من الحجر، والمرونة تقهر الصلابة، والرقة والنعومة تتفوقان على القوة والقسوة. وما إن أطمئن لفكرتي هذه وأجترها لأتلذذ بمذاقها، كما تجتر بقرة كسول العشب وهي ساهية عن العالم، حتى يهمس لي خاطر بأن إلهتي، العصية على التصنيف، هي كل هذه الصفات المتناقضة. فصلابتها حُبلى بالمرونة، وانتقامها مكسو بالعطف.

ذات إغفاءة نادرة حلمت بأنني إياها. لم أحتمل جلال اللحظة. تحللت إلى ذرات لا تُرَى، إلى بخار ماء متطاير في الهواء. صحوت مأخوذة بحلمي. ماذا لو كنت إياها حقاً؟ ماذا لو كنت ربَّة ملعونة بغفلتها عن ذاتها الحقيقية؟ ماذا لو كنت منذورة – بسبب جُرم لا أتذكره - لخداع ذاتي وتضليلها بينما أظن أنني أضلل الآخرين وأغرقهم في الأوهام؟!

لا أعرف حتى إن كان من أضللهم آخرين أصلاً أم أنهم إياي وقد انقسمتْ وتكاثرتْ. فهم مثلي، أطفال الوهم وصنّاعه. غير أنهم بخلافي أول ضحاياه. أنا أداة نفسي وصنيعتها، وأدواتهم كلمات لن يأمنوا مكرها مهما احتاطوا. المتلاعبون مشيدو المتاهات دائماً ما يكونون

المرشحين الأوائل للتلاعب بهم وإغراقهم في لعنة التيه.

من أجلهم، تحتاجني ربة الطلاسم أكثر من احتياجي لها. أنا اليد التي تراوغهم بها. في البداية، لم أنشغل بهوياتهم ولا بالسبب الكامن وراء رغبتها في مخادعة أبصارهم وعقولهم، ولا حتى اهتممت بمعرفة من أين يأتون ولا إلى أين يتجهون.

كنت منتشية بسلطتي عليهم، مخمورة بمهارتي وسحري، ومع الانتشاء لا وقت للأسئلة، وفي حالة السُكر لا سبيل للتعقل والتدبر. فقط خلال حلمي بربة الطلاسم أتيح لي أن أراهم بعيداً عن حالة الضحايا المنخدعين بتقلباتي.

كنت إياها. سكنت عقلها، فامتلكت أفكارها وامتلكتهم لأنهم كانوا فكرة مختمرة في ذهنها. أبصرتهم بوضوح قبل ارتحالهم فرادى من مدينتهم السابقة، ووقوعهم في براثني. فتنتني المدينة خاصةً حين انطفأت فانطفأوا معها. أفقت من حلمي غير متأكدة من كنه ما مررت به. يتكرر هذا كثيراً مؤخراً، أقصد عدم القدرة على فصل الحقائق عن الأوهام والخيالات، فمن كثرة ما تحولث وتلبسث أشياءً ليست أناي، ولا تشبهني، صرت أتشكك في كل ما حولي. سكنني الوهم ولم أعد أثق في عينيَّ أو قناعاتي.

ما أدراني أن هذه السماء أو هذا البحر أو تلك الصخرة ليست من صنعي؟ ليست وليدة الوهم والتخيل

والخداع؟ كنت أسأل نفسي وأحار في الإجابة.

صرت أيضاً أتساءل إن كان هؤلاء المرتحلون بين البحار والصحاري وأماكن الخلاء موجودين بالفعل أم أنهم من اختراعي ونتاج أوهامي.

كانت تلك لعنتي. مكري وقد ارتد عليَ. الشك وقد أضحى جرثومة تنهشني من الداخل. حتى ربَّة الطلاسم لم تنجُ من جرثومتي هذه. كثيراً ما كنت أكفر بها وأتوه عنها، وأنفي حقيقة وجودها. ساعدني على هذا غياب معبدها واختفاؤه معظم الوقت، وسرابيته واهتزازه في الأوقات القليلة التي ينبعث فيها. كان إيماني بها يترسخ فقط حين أقنع نفسي بأنني إياها، وأن تعددها وجه من وجوه تحولاتي. لم أكن في حاجة إلى إقناع أحد غيري. العالم غير موجود بالنسبة إليَّ. أنا وهو على طرفي نقيض، على الأقل في ما يخص رؤيته عن نفسه.

يظن أنه مقدود من صخر، لذا يستهين بكل ما هو لين طري لا يستقر على حال أو شكل. يتوهم أن الصلابة ما ينجيه، وما يحفظ وجوده وسط شلالات العدم. لا يدرك أنه قرين السيولة وابنها. مدين لها باستمراريته وبكل ما يميزه ويجعله جديراً بالاهتمام.

في طفولته، كان العالم مسطحاً مائياً لا تحده حدود، فقط يغمره الضباب حتى يكاد يخفيه ويموِّه عليه. كان فكرة تختمر على مهل في عقل يثمِّن التحول والسيولة والتطاير، غير أن هذه الفكرة حين تجسدت وقعت في عشق الصلابة وتنكرت لليونة واللاشكل. أنكرتني

وسخرت مني. لم تفهمني كما يجب. جعلتني نقيضها وأمعنت في معاداتي. لم تدرك أنّي جوهرها، أني منقذتها مما هي فيه من ضلال، إذ لا يفل الضلال إلّا الضلال. لا يبطل الوهم إلّا وهم أكبر.

أفكر في هذا، فتنفتح شهيتي على التحول بوتيرة أسرع حتى لا أكاد أنتبه لكُنه الأشياء التي أتلبسها. أنتشي وأرقص فيرقص الكون معي. أنفض كل الأفكار والأوهام عني. أرتاح لخاطر أن من لا يفهم سر الليونة واللاثبات بمجرد تأمل تبدلات الكون من حوله لا يستحق عناء إرشاده والشرح له. شتاء وربيع ثم صيف وخريف. ليل ونهار. شروق وغروب. محاق فهلال فبدر. نجوم تولد من غبار كوني وأخرى تموت. نبتة تنمو وتزهر ثم تذوي، لتعاود النمو مجدداً. جسد يخط الزمن عليه متونه وشخبطاته على مهل. ماء يتبخر حتى ينتهي، ومطر غزير يتساقط. جفاف وفيضان. طوفان يغرق كل ما يقف في طريقه وصحراء جرداء تتوق إلى قطرة ماء. حتى الصخور والأحجار المفتونة بصلابتها تتفتت وتنكسر مع الوقت. هذا وغيره هو المتن المُتَجَاهَل. نص مكتوب بلغة واضحة في خفائها، ملغزة في وضوحها. لا تحتاج إلى من يفك شفرتها أو يحل أحجياتها، ومع هذا نادراً ما تجد من يفهمها، وإذا حدث وفهمها أحدهم، سرعان ما يتناسى درسها. درسي.

أنا شقيقة الفراغ. جنية الخلاء والعراء. رائية الوحيدين والتائهين والضائعين على دروب لم يختاروها

في المقام الأول. أدرك أكثر من غيري أن الطريق ليس الطريق، والنهر ليس النهر، والشجرة ليست الشجرة. كل في حالة صيرورة مستمرة. الزمان يتجلى في المكان، والمكان يبتكر الزمان. وأنا في العراء أرسم – بمساعدة صهد الظهيرة - لوحات سرعان ما تكتشف العين زيفها، ويلاشيها القرب.

واحة التيه

واحتنا لا تشبه أي واحة أخرى. ليست نقطة وصول أو مرفأ أمان إنما تعميق للتيه حتى ليتمنى الواصل إليها لو لم يفعل قط، لو ظل متخبطاً بين دروب صحراء لا نهاية لها، بدلاً من بلوغ ما ظنَّه فردوساً، ليُفَاجَأ بأنه جحيم مستعر.

في واحتنا بستان موز ممتد لمساحة كبيرة تجاوره بساتين نخيل وأعناب وبرتقال وزيتون، وتتناثر بينها جميعاً جميزات معمرة، بينها واحدة هي أكبر أشجار الواحة، إذ تنشر فروعها وأغصانها في كل اتجاه. يلي البساتين نهر أمواجه صاخبة كأنها لبحر. وضفته الأخرى صخرية، يحرسها جبل مختبئ في ضباب يبدأ وينتهي عنده، مانحاً إياه بياضاً مموهاً برمادي داكن.

كائنات الواحة تحلم بلا انقطاع باستكشاف البر الآخر، والعودة بأسراره وكنوزه، لكنه حلم لا سبيل إلى تحقيقه، فعبور النهر شبه مستحيل. وحتى في حالة عبوره، من المستحيل العودة من هناك، ففي الحالات النادرة التي نجح فيها بعض المقامرين في الانتقال إلى حيث عجز سواهم مستغلين انحسار النهر وجفاف مائه، ابتلعتهم شعاب الجبل ولم يرهم سكان الواحة بعدها.

لتبرير غيابهم ومنحه معنى، تبارى رفاقهم القدامى في ابتكار حكايات شفاهية تسرد رحلاتهم إلى هناك، وتضفي عليهم آيات البطولة والشجاعة. بدا واضحاً ولع

هذه الحكايات بالحديث عن معبد منحوت في جسد الجبل. أجمعت الحكايات على كونه معبد ربة ديانة مهجورة مشيَّد بأحجار صقيلة وحوائطه مغمورة بنقوش، قيل إنها تشرح كيفية ترويض الكون والوصول إلى الحكمة الخالصة. قيل أيضاً إن هذه المتون لا تتطلب تعلم اللغة المكتوبة بها، إذ لا سبيل إلى ذلك، فهي ليست لغة بالمعنى المفهوم، بل متواليات من رموز وأكواد وعلامات لن يفك شفراتها إلّا عارف بها منذ الأزل.

اختاروا للمعبد، في خيالاتهم، أن يحتل صدارة قرية منحوتة بكاملها في صخور الجبل، ببيوتها وشوارعها وميادينها وقنواتها وجداولها المتساقط ماؤها على منحدرات الجبل.

من يتسلق الجميزة العملاقة يمكنه من فوقها رؤية الجبل ببيوته وشعابه وصخوره المنحوتة على هيئة سباع ووحوش ووجوه مذعورة، كما يُخيَّل إليه أنه يسمع همسات غامضة لأناس بعيدين.

ما إن يهبط حتى ينغمس في رسم ما رأى بأدق التفاصيل الممكنة، قبل أن يدونه على رقوق يقرأها على مستمعيه المشدوهين، لكن إن سأله أحدهم السؤال الذي يشغل بال الجميع: «والمعبد؟ كيف هو؟» سينظر بخواء دون أن يرد.

الرسومات، على اختلافها، تركت بقعة فارغة في المكان الذي من المفترض بالمعبد أن يشغله. كل من

تسلق الشجرة ورَنَا إلى البر الآخر من قمتها رسم رسمة مختلفة عن رسمة سابقيه، غير أن الرابط الواصل بينها كان خلوها جميعاً من المعبد، كما أن وصفهم المكتوب أيضاً لم يُشِر إليه ولو من بعيد.

أطلق سكان الواحة على كل من تسلق الشجرة العملاقة لقب «الرائي»، وعاملوه بتوقير، واستماتوا لتحفيزه على الحكي عن المعبد، ولم يفلح تهرب الرائين من الحديث عن المعبد في إقناع السائلين بأنه محض خرافة.

إذا تجرأ أحدهم وأنكر وجوده بجملة لا تهدف إلى التجديف الجدي، إنما لدفع الرائي إلى الحديث عنه، يفزع الأخير ويسارع برد لا يكاد يتغيّر كل مرة: موجود طبعاً.

ثم لا يتبعه بأي توضيح، ويبادر بتغيير الموضوع عبر وصف تفصيلي للوجوه الصخرية المذعورة المنحوتة على جسد الجبل، أو وقع خرير المياه على أذنه، ونادراً ما يستوقفه أحد للتشكيك في أن يصله الخرير من هذه المسافة.

اللافت للانتباه أن لا أحد من الرائين فكّر يوماً في عبور النهر، كأن ثمة اتفاقاً غير معلن بينهم بأنهم اكتفوا بما شاهدوه من أعلى نقطة في ضفتهم هذه. من تهوروا ورموا أنفسهم في اليمّ، في غير أوان انحساره، مستغلين عتمة الليل لم تكن لديهم الجرأة لتسلق الشجرة السامقة أو حتى الاقتراب منها، كما كانوا الأقل

فضولاً تجاه الضفة الأخرى، أو هذا ما بدا لنا على الأقل.

كنا نفاجأ بذوبان أحدهم في الصباح، فنخمن أنه ألقى بنفسه في الماء راغباً في العبور، لأننا نعرف أن لا مخرج من هنا سوى باتجاه النهر، فالصحراء المحيطة بالواحة من ثلاثة جوانب وحش فاغرٌ فاه لالتهام كل من يخرج منها ولو بالخطأ.

يبقى التساؤل عن دوافع إقدامه على هذه الخطوة: أناداه النهر للغرق فيه؟ أم استحوذ عليه هاجس العبور؟ أم رغب حقاً في سبر أغوار معبد لم يتأكد من وجوده أحد؟

هؤلاء المتهورون – بلا استثناء – من القادمين الجدد إلى الواحة. يصل واحدهم في أعقاب الآخر، ويسير ذاهلاً عنا، غير منتبه لوجود رفاقه. لولا التشابه في هيئاتهم، وفي طريقة سيرهم واستغراقهم في أفكارهم لاعتقدنا أن لا علاقة لأحدهم بالآخرين.

لكن نقاط الالتقاء العديدة بينهم – حتى ولو كانت غير مُدركة منهم – دلتنا على أنهم ينتمون إلى فئة واحدة. جماعة أفعالها مستغلقة على أفهامنا. نتذكر منهم اثنين على وجه التحديد. الأول دخل الواحة بتعبير من ولج لتوه عالماً سحرياً. راح يتلفت حوله وينظر إلى أكثر الأشياء عادية بدهشة مبالغ فيها. يتأمل أوراق الأشجار وجذوعها، ويرفع رأسه شارداً لبرهة كأنما يدون ملاحظاته في ذهنه بحبر سري، ثم يعاود تأملاته من جديد. لم نفهم سبب تدقيقه في كل ما

حوله. وانصياعاً لناموس عالمنا لم نسأله عن تفسير. ليس من الملائم في غُرفنا محادثة الغرباء. والغرباء بالنسبة لنا ليسوا من بلغوا الواحة لتوهم أو حتى منذ أسابيع أو شهور، بل كل من لم يولد فيها.

كنا نتابعه مأخوذين. اعتاد الجلوس على ضفة النهر لساعات محدقاً في مياهه. لم تكن الريح ترهِبه ولا الأمطار الغزيرة تدفعه للبحث عن سقيفة يحتمي تحتها من الماء.

بدا ابناً للطبيعة. صخرة يحلو لها أن تفتتها عوامل التعرية. تخيلناه دوماً جزءاً من ضفة الأحجار، تمثالاً ينتظر أن يُنصب هناك. لم نعرف أي مصادفة عمياء ألقت به على ضفتنا بدلاً من وضعه هناك، حيث تنتمي روحه.

كنا نرقبه في جلسته على الشاطئ، فنخاله تمثالاً لحكيم جالس القرفصاء، جسده مقدود من حجر رملي يمكن للحشائش والنباتات أن تخترقه وتنمو فوقه. تخرج منه سروة أو صفصافة تتمايل فروعها المرنة بحيث تلامس أطرافها ماء النهر.

اعتدنا أن نقول لأنفسنا إن رمل الحجر والبذور الكامنة فيه هما ما يجعلانه يحن لمياه المطر الهاطلة ولا يسعى إلى الاحتماء منها. حين غاب ولم نعد نلمحه في أي مكان داخل الواحة أقنعنا أنفسنا أنه تفتت فجأة إلى رمال بعثرتها الرياح، أو استحال شجرة تائهة بين غيرها من أشجار بسبب بذرة نمت مخترقة جسده في

غفلة منا ومنه.

ثم لم نعد نتذكره تقريباً لأننا انشغلنا عنه بالطارئ الثاني الذي أثار اهتمامنا بدرجة أكبر. لم يكن مندهشاً كرفيقه الغائب، كان غير مكترث بأي شيء خارج حدود جسده. يكاد لا ينظر أمامه. يخطو كيفما اتفق كأن العالم غير موجود. مع الوقت انتبهنا إلى حركة شفاهه. عرفنا أنه يحادث نفسه بما يخفى علينا. أتاح لنا انغماسه في ذاته وغفلته التامة عما عداه الاقتراب منه بدرجة لم نحلم بها مع سابقيه.

كان يكرر ثلاث جمل بلا انقطاع. تتبع الواحدة سابقتها حتى تكتمل الثلاثية، فيصمت لبرهة قبل أن يعاود تكرار ما سبق وقاله بالنغمة نفسها وبنبرة الصوت الخفيضة ذاتها. بدا صوته خشناً كأنما لم يُستخدَم لسنوات.

لم نفهم كلماته. كانت غريبة على آذاننا لدرجة موجعة. لغة كأنما اخترعها بنفسه، ويردد ما ابتكره من مفرداتها كي لا ينساها فيصير بلا لغة.

من كثرة ما سمعنا كلماته المكرورة حفظناها بالترتيب نفسه. بدت كأنشودة روح ملتاثة تتضرع لرب لا نعرفه. سكنتنا كلماته، باتت تتكرر في آذاننا بلا انقطاع حتى عندما يختفي صاحبها عن أنظارنا. تستقل عنه وتتردد في غيابه بالصوت الأجش المهجور نفسه.

لذا لم يكن الأمر غريباً حين زارتنا الكلمات في أحلامنا. اندغمت معاً في جملة طويلة لاهثة، ومع هذا

تعرفنا عليها، بل فهمنا معناها كأن عقولنا أمست مبرمجة على ترجمتها بشكل فوري. كان يقول:

«ليس عليّ بناء القلعة لأنني إذا شيدتها - ولو في خيالي فقط - سيكون عليّ سكناها، وأنا صرت أخاف سكنى القلاع، بل صرت أخاف من مجرد التفكير فيها!».

تركَنا هذا أكثر حيرة. صحونا ينظر أحدنا للآخر، وفي عيوننا يلمع الاضطراب ويلتهب التشوش. لم نعرف إلى أي قلعة يشير الغريب، كما لم نفهم علاقة جملته بأي شيء. مثّلت أحجية جديدة تُضاف إلى عشرات الأحاجي التي تغص بها واحتنا، طلسماً آخر يليق بربّة الطلاسم المزعومة ومعبدها الغائب عن أبصارنا.

بعدها اعتدنا رؤية ذاك المتكلم بلا انقطاع يواصل سيره وهو يردد كلماته نفسها. لم يعد معناها غامضاً علينا، ومع هذا لم ينكشف إلغازها ولم تنطفئ حيرتنا أمامها. لم نتساءل لماذا لم يرد على بالنا أن هذا الالتباس وليد خطأ في الترجمة؟! وأدنا هذا الخاطر حتى قبل أن يلوح من بعيد. كنا واثقين من أن أحلامنا أجادت ترجمة الكلمات. بدا إبهامها ملائماً لتصوَّرنا عن قائلها. بتنا نراه كممسوس بما لا نعلم، وعندما اختفى لم ندهش. قلنا ربما نادته قلعته تلك وأغوته كي يستخرجها من حيز العدم. مؤكد أن فكرتها تقبع في مكان ما منتظرة منه أن يشيِّدها ويحولها إلى واقع مجسَّد.

ارتحنا لهذه الفكرة، وتجاهلنا حقيقة أن النهر هو

المخرج الوحيد المحتمل من واحتنا، وأنه بحالته، كما نعرفها، ليس مخرجاً حقيقياً بأي حال، بل هاوية تبتلع كل من يخاطر بمحاولة العبور.

لم يكن ماؤه قد غار منذ مدة، وبهذا تكاد فرصة المتكلم بلا انقطاع في المرور إلى ضفته الأخرى تكون معدومة. كل هذه التفاصيل تجاوزناها، وأرحنا أنفسنا بأنه الآن في مكان ما يشيد قلعته، أو يردد حججه بعدم بنائها على مستمعين عرضيين لا يفقهون لغته.

مع الوقت اكتشفنا أن كلماته لم تغادر معه. واصلت سكنى أحلامنا، كما صرنا نسمع أصداءها تتردد بين جنبات الواحة وقت شروق الشمس ووقت غروبها. لاحظنا أن صوته صار متعباً مكتوماً كأنما ينبع من قعر بئر سحيقة الغور.

أرجعنا هذا إلى أن قائل الكلمات الآن في مكان بعيد لا نعرفه، وانشغلنا أكثر بقلعة أطلقنا عليها قلعة الشمس، وحاولنا عبثاً تخيّل تصميمها ومعمارها المحتمل.

اكتشفنا أننا تعلقنا به أكثر مما فعلنا مع رفيقه، ذاك الذي تخيلنا جسده مقدوداً من الحجر الرملي. اختفى تعاطفنا مع الأخير حين أقنعنا أنفسنا بأنه استحال شجرة تائهة بين أشجار الواحة. حسدناه لأنه صار ما تمنيناه جميعاً وخشينا من التصريح به.

عدنا لحياتنا كما نألفها. أبصارنا شاخصة نحو الضفة الحجرية، وخطواتنا تجر أرواحنا خلفها من ممر لآخر بين الأشجار والبساتين. نسأل الرائين عما رأوه من فوق

الجميزة، ونتساءل عن مصير من اختفوا ونحن نتأمل نهراً يدكن ماؤه بمرور الأيام.

قلعة الشمس

وحدها تقبع في بقعة على تخوم الخيال. بمظهرها الرمادي القاتم وأبراجها المستدقة، الأشبه بحراب مغروسة في قلوب أعداء غير مرئيين معلقين فوقها، تبدو القلعة غارقة في الانتظار. انتظار من تبدّت في خياله كفكرة عابرة، لكن أرهبه تشييدها وتجسيدها خارج حدود سجن رأسه.

في أفكاره، كان يمكنه: السير فيها مغمض العينين. الاختباء في أقبيتها. عبور دهاليزها المتاهية. النظر من نافذة مضاءة في أحد أبراجها فيما تغرق بقيتها في ليل بهيم.

لكن، مع الوقت، صار مجرد تفكيره فيها يخيفه. أصبح معذَّباً بها. لا يمكنه تجاهل إلحاحها على عقله، وليس في مقدوره التعايش مع وجودها. أعرف هذا لأنني، مثله، اختبرت المشاعر نفسها.

من سمعوه، في شبابه، يحكي عن رغبته في تشييد قلعة لا مثيل لها، لم يهتموا بما يقول. اعتادوا منه على غريب الكلام والأفعال. حدسوا بأنه يثرثر بما لن يفعل. لم يفهموه – ولا أنا أيضاً - حين راح يرسم التصميم تلو الآخر، وإذا لم يسعفه الرسم لجأ إلى الكلمات. دوَّن وصفها على هيئة أبيات شعر أقرب إلى الأحاجي.

كان يردد أنه يرغب في بناء قلعة من خطأ، كل شيء فيها معاكس للمتعارف عليه في فن العمارة، ومع هذا

من جماع كل هذه الأخطاء يجب بلوغ صواب يقارب الكمال. كانت مفردة الكمال تثير غثيانه. لطالما كرهها. انحاز للنقصان. وجده صنو البشر والمعبّر عنهم، لهذا لم يفهم لماذا يفكر في الكمال كلما وردت معذبته على باله، ونادراً ما كانت تغيب عنه.

خطر له أن أفضل طريقة لتشييدها دون القيام بهذا فعلياً تتمثل في كتابتها. تحويلها إلى كلمات مخاتلة تثير خيال من يقرؤونها. أعجبته الفكرة، غير أن الكلمات راوغته هو قبل أن تراوغ قارئها المحتمل. كلما حاول تثبيت حلمه على الورق، إذا به يتحول لشيء آخر. بنيان لا يشبه ذلك المترائي لخياله في شيء.

اختفى ذات صباح. لم يخلّف وراءه أثراً. كان هكذا على الدوام يتحرك كقط بري لا تنطبع آثار أقدامه على تراب الطريق، غير أن عودته لبلدتنا باستمرار – في الماضي - لم تدع لنا، نحن معارفه، فرصة البحث عن آثاره من قبل. انتظرنا أن يرجع يوماً كعادته.

في بيته لم يكن هناك ما يدل على وجود سابق له. لم نجد ثياباً أو أثاثاً أو أي شيء يحمل بصمته. كان المكان خاوياً إلّا من دفاتر يحوي بعضها تصميمات أو بالأحرى تصميماً واحداً متكرراً لقلعة مقبضة، فيما يضم بعضها الآخر نصوصاً يصف كل منها قلعة مختلفة لا علاقة لأي منها بساكنة تصميماته. لسبب غامض عليّ، احتفظت بدفاتره كإرث لا يجوز التفريط فيه.

سمعت أهل البلدة يقولون إن بعض الناس منذورون

للغياب، ولأن يكونوا غرباء بلا انتهاء، وكان هو أحد هؤلاء. نسوا أمره، وحين تهدم بيته مع مرور الزمن أدركوا أنه لن يعود أبداً. بعد سنوات من اختفائه عثرتُ بالمصادفة – فوق جزيرة معزولة - على قلعة تكاد تتطابق مع ما سبق ورأيت في تصميماته الموجودة بحوزتي.

لم أعرف إن كان قد شاهد هذه القلعة المهجورة واستلهم رسوماته منها، أم أنه شيَّدها في تلك البقعة غير المطروقة عقب رحيله عن بلدتنا! قِدَمُها وعتاقة أحجارها الرمادية المائلة للأسود أخبراني أنها تسبق وجوده ووجودي بقرون.

لم أجرؤ على الاقتراب منها. شعرتُ بطاقة طرد عنيفة تنبعث من داخلها. عدت لبلدتي أحكي لمعارفي عنها. بعدها، صارت عادة لكل عائد إلى البلدة أن يحكي أنه رأى قلعة تتطابق مع الموجودة في الرسومات التي عثرنا عليها في منزل الغائب، مع أن معظمهم لم يبصر هذه الرسومات سوى مرة واحدة.

اختلفوا بخصوص موقع القلعة، فهناك من أكد أنها موجودة في أقصى الأرض، فيما أقسم غيره أنها في أدناها، لكنهم جميعاً اتفقوا على أنها تقبع فوق جزيرة معزولة، تجاورها بحيرة يبين من ورائها جبل تعلوه قلعة أخرى تشبه الأولى، وتبدو كأنما تتجسس عليها وتترصدها. أجمعوا أيضاً على الأبراج الأشبه بحراب مغروسة في قلوب أعداء غير مرئيين، وعلى أن كلاً

منهم شعر بالرهبة وخشي الاقتراب من البناء المهيب، وأن خاطراً داهمه مفاده أن حربة أحد الأبراج سوف تنغرس في قلبه لو فعل.

بدوا كأنما يتكلمون عن القلعة نفسها على الرغم من اختلافهم في تحديد موقعها. واحد فقط حكى أنها لم ترهبه، وأنه حين اندفع صوبها راغباً في استكشافها من الداخل فوجئ بأنها محض وهم، ابنة تهيؤاته وخداع بصره له، لكن ذاكرته احتفظت بأدق تفاصيلها وزخارفها والمقرنصات والتماثيل المزينة لواجهتها.

مع الوقت تجرأ آخرون واقتربوا منها ليكتشفوا مثل سلفهم أنها غير موجودة، لكن الغالبية ظلت على خشيتها.

الغريب أن الحكايات الأحدث لم تشر إلى عزلة القلعة ووجودها خارج دائرة العمران أو في منطقة بالغة البعد. بالتدريج صارت القلعة تقترب حتى أن أحدهم زعم أنه صادفها قابعة داخل الغابة المجاورة للبلدة وبجوارها أيضاً بحيرة على الجانب الآخر منها جبل فوقه توأم القلعة.

كل هذا بدا منطقياً ومقبولاً من أهل البلدة، لكن حين أخبرتهم أنها تتراءى من نافذة غرفة نومي غارقة في الصمت وهي تواجه توأمها قرر الجميع أني فقدت عقلي.

كانوا قد وصموني بغرابة الأطوار منذ عرفوا أني لا أكف عن استنساخ تصميمات الغائب. وأن بيتي امتلأ

بدفاتر تحوي التصميمات المستنسخة، وتراكم الغبار على كل شيء فيه.

يمكنني تفهم وجهة نظرهم لأنهم حين يمرون بالقرب من بيتي في أي وقت يشاهدون ستائر شفافة تتطاير، وفق اتجاه الريح، خارج أو داخل غرفه مفتوحة النوافذ. يبدو لهم البيت فارغاً. لا يبصرون أثاثاً أو أي شيء سوى حوائط كالحة وأرضيات متربة. نادراً ما أظهر لهم داخله، وفي المرات القليلة التي يلمحونني فيها، أكون عابراً كشبح يتحرك ظله من نافذة لأخرى.

لم أعد أشاهَد في الطرقات. أكاد لا أخرج من البيت. مؤكد أنهم يتساءلون كيف أجلب طعامي وشرابي. لا ريب أنهم ظنوا أني أزرع خضراوات وفواكه في حديقة سرية خلف البيت. لا بد لأي شيء من أن يكون سرياً كي ينال شرف اهتمامهم.

عرفت أنهم قد استبعدوا هذه الفكرة – لو كانت حقاً خطرت ببالهم - حين بالغوا في التلصص على بيتي، ربما في انتظار أي بادرة تدل على وجود حقيقي لي. بالغت بدوري في التخفي والمراوغة. لم أحفل برأيهم إذا رأوا الدفاتر والأوراق التي تكاد تغطي الأرضيات، بل حرصت على تركها في مجال رؤية العيون المتلصصة. ولم أسعَ إلى منع تطايرها إلى الخارج، على العكس تعمدت ترك ما أريد تطايره منها في مرمى الريح، كي يطالع فيها المتلصصون مستنسخات التصميم الأصلي. من مكاني – حيث لا يمكنهم رؤيتي - تابعتهم وهم

يجمعون بعضها، وشهدتُ على الهواء وهو يحمل بعضها الآخر إلى حيث لا أعلم ولا يعلمون.

أعرف أنهم لن يستوعبوا أبداً سبب استنساخي لتصميم أصلي أصررت على الاحتفاظ به منذ وجدته في منزل الغائب بمجرد اختفائه. أنا نفسي لا يمكنني شرح دوافعي بلغة مفهومة. غير أن ما فاجأني، ولم أجد له تفسيراً يقبله عقلي، كان ما سمعتهم من مكمني يتهامسون به عن أنني ربما أكون صاحب الرسومات الأصلية وليس الرجل المختفي منذ سنوات. أنصتُ إليهم وهم يرددون أنّي ربما دسستها في منزله، بطريقة ما، قبل إبلاغهم باختفائه.

في ما بعد شككوا في حقيقة أنه قد عاش بينهم يوماً. بعضهم راح يسوق البراهين لإثبات هذا الزعم. لم أفهم كيف يتذكرون تفصيلة دقيقة مثل أنّي كنت أول من حمل لهم خبر الاختفاء، ومع هذا ينكرون حياة كاملة، نمت وازدهرت على مرأى منهم قبل أن تتدثر بالغياب.

من مخبئي بالداخل قررت أن أحكي بصوتي المتشقق المجروح ما أرى أنه قصتي، واثقاً من فضول وتشوق مستمعين يظنونني غافلاً عن وجودهم على مقربة. لم أملّ من تكرار مونولوجي هذا، ولم يسأموا – على ما يبدو – من التنصت عليه:

في البداية لاحت لي قصية معزولة عن العالم، ثم رأيتها تقترب. يوماً بعد الآخر أخذت تدنو. تابعت

خطوها على الطرقات نحو البلدة. صرت أراها من نافذة غرفة نومي، ثم من كل نافذة ممكنة. حاولت غلق النوافذ فلم تطعني. تواطأت مع القلعة ضدي. راحت تمدني بصورتها بلا انقطاع.

اقتربت معذبتي أكثر واحتلت بيتي. صارت إياه وصار إياها، ومع هذا كانت تطل عليَّ هي وقرينتها الجبلية من كل الشبابيك المفتوحة أبداً. أضحت تسكنني. أشعر بها في أحشائي. تهدر الريح في أروقتها، فأسمع صدى صفيرها في أعماقي. تستحوذ عليَ وحشة القلعة. أنصت إلى وقع خطى ثقيلة في دهاليزها.. دهاليزي. أكاد أرى العتمة تسود في ثناياي، ثم يطوِّح الهواء درفة شباك ما في قلبي فتتخللني أشعة ضوء مبعثرة. يلمسني دفؤها، فأنشغل مؤقتاً عن ما أنا فيه.

سمعت كثيراً عن أبنية تسكنها الأرواح. ومنذ رأيت تخطيطات الغائب لأول مرة، أدركت أن قلعته هذه مسكونة حتى من قبل أن تُشيَّد. ما غاب عني إدراكه أنها بدورها تسكن الأجساد. تلتصق بها كعَلَقة تمتص الدم والأعصاب ورجاحة العقل.

لا أدري من أي جحيم استقى الرجل تصميمه الأولي. ما أوقن منه أن عليَّ إبطال هذه اللعنة قبل أن تسكن الكون بأسره. قبل أن تُلاشيه وتبتلعه.

التصميمات تميمة. الرسومات المتكررة طلسم يحوي سحراً أسود. الدفاتر الملأى بالحروف والكلمات لعنة لا سبيل لحجب تأثيرها. وكلها يسلبني عقلي. يتآمر عليَّ

ويموِّه الوجود أمام عينيَّ. لا سبيل سوى الانغماس فيها وإنتاج الآلاف منها. كتبت وكتبت. رسمت ورسمت. رغبت في التطابق، ولم أحصد سوى الانحراف عن الأصل. أقارن تصميماتي بأصولها فأجدها مختلفة على الرغم من أنها للقلعة نفسها. لمسة زائدة هنا. ميل مغاير هناك. لا يمكن لعين غير مدققة ملاحظته لكنه موجود يحدق فيَّ بنصوع الخطأ وإشراقه. لم يكن خطئي. كان تعويذة القلعة لحماية نفسها، أو ربما أي شيء آخر. في النهاية لاحظت الاختلافات بين التصميمات الأصلية. لم أعرف إن كان الغائب قد كرر التصميم نفسه مئات المرات لمنع انحراف لا إرادي. أم أنه تعمَّد تباينات طفيفة بين تصميم وآخر لسبب لا يعلمه غيره، فرأت العيون الكسلى التطابق حيث لا يوجد.

لن أعرف أبداً، لذا عليَّ ألَّا أتوقف عن إنتاج الرسم تلو الآخر. لم تعد مجرد مستنسخات. أثق من فرادتها على الرغم من كل شيء. باتت قشة يحميني تعلقي بها من الغرق في الجنون، أو ربما ممراً يقودني إليه.

عيون مغلقة على حلم قديم

كنت نهراً ذات يوم، لكنني الآن وهم النهر. أو ربما فكرته عن نفسه، أو فكرة الآخرين عنه. المهم أنّي لم أعد ذاتي القديمة، حتى وإن تشابهت معها.

في زمن آخر كنت نهراً بحق. أنبع من بحيرات فوق هضاب استوائية، وأشق طريقي بدأبي، مرتحلاً في البلاد والمناخات. حفرتُ مساري عميقاً في الأرض. اتحدثُ بها وتماهيتُ معها. نخرتُ فيها فلانت لي وأطاعتني. بمرونتي قهرت صلابتها. روَّضتها، فامتثلت لأمري. ما عجزتُ عن تفتيته التففتُ حوله، ولم أعتبر هذا نقصاً فيّ، بل مرونة في عالم يدين للتكيف ببقائه.

ما تبَّخر مني بقوة الشمس، عاد لي سيولاً وأمطاراً. علّمني موسم الجفاف ألّا أغتر بسطوة فيضاني، حتى وإن أغرق عشرات القرى وشرد آلاف البشر.

في أعماقي رعيتُ السكينة، وخمَّرت صدى السماء والجبال والأشجار والصخور. خبأتُ أسراري، وتظاهرت بأنني أمقت الصخب والغموض، في حين كانت الذكريات والظنون تصطخب داخلي.

الآن أتمدد في العراء فاصلاً وواصلاً بين ضفتين متناقضتين. لا شيء يؤنس وحدتي سوى ذكريات زمني الأول، أو للدقة ذكريات نهر آخر تلبسته محاولاً أن أكون قريناً يضمره في أحشائه، غير أن أحشائي ملأى بغرقى

الأمل، مَن ظنوا أن في مقدورهم عبوري، ولم يعرفوا أنّي مجرد شبح. شبح نهر قديم قالوا إنه ينبع من القمر ويصب في الجنة.

لا أفعل شيئاً سوى الانتظار. لا أغويهم بالقفز في داخلي حتى لو اعتقدوا هذا. الغواية بذرة تنمو في نفوسهم. تكبر وتتشعب حتى تحتل كيانهم بأسره. على عكس الشائع، لا تحتاج تلك البذرة إلى محفز خارجي. هي مكتفية بذاتها غير مكترثة بما سواها. هؤلاء استحوذ عليهم وسواسٌ ذاتي بحتمية العبور. داعب غرور كل منهم هاجس أنه وحده من سينجح في تحقيق ما فشل فيه سابقوه.

لم أفعل شيئاً سوى احتضانهم حين ألقوا بأنفسهم فيّ. قبضت عليهم بمخالبي وجررتهم نحو الأسفل. انغلقتُ عليهم. في عتمة أعماقي استعادوا حقيقتهم الغائبة. عادت ذاكرة كل منهم ساطعة مجلوة ومحتفظة بأدق تفاصيل ماضيها.

أغلقوا عيونهم على حلم قديم. تناسوا ما هم فيه وعاشوا في برهة منفلتة انتقوها بعناية. شيَّدوا في مخيلتهم عالماً من ذكريات ضموها معاً لتكوين حياة متماسكة يمكن لكل منهم إيهام نفسه بأنه يحياها.

أعرف تلك اللحظة السحرية حين يدرك أحدهم أن مخيلته عادت للعمل بكامل طاقتها، وأن ذاكرته متأججة كما لم تكن من قبل. أستشعر رعشة الإدراك في جسده

وفي إحكام إغماض عينيه.

وقتذاك فقط، أوقن أن هؤلاء رائون حقيقيون. كل من التحم بي استحق لقب «الرائي» بجهده واندفاعه. لقب نالته أرواحهم قديماً، وحملوه معهم إلى مدينة تشبه صخرة متأرجحة، ملتهمة للمخيلة ومبلبلة للألسن، ثم إلى واحة كانت محطتهم قبل الأخيرة.

لو قُدِّر لهم معرفة أن هناك من يطلق هذا اللقب على من لا يستحقه لاندهشوا بشدة. أو ربما لم يكن الأمر ليشغلهم كثيراً. الرائي الحقيقي لن يهتم بكيف يقيِّمه الآخرون، ولن يكترث إذا أساؤوا فهمه، وأسبغوا فضائله على من لا يستأهلها. الآخرون غير موجودين بالنسبة إليه.

أتكلم عنهم بصيغة الجمع، على الرغم من أن كلاً منهم لا يعي وجود رفاقه، ولا يمكنه التواصل معهم. عرفت هذا حين ابتلعتهم وصاروا جزءاً مني. ابتلعت معهم معارفهم وأفكارهم وخيالاتهم. خيالات كانوا قد حُرِموا منها لفترة طويلة.

ما يزعجني أن أفكارهم متصارعة متضاربة. وأنّي أضيق بحملها. أسبغ استقرارهم في قاعي عليّ لقب نهر الذاكرة وأضاف لماضيّ مئات الشخصيات والأحداث والحيوات، غير أنه سلب راحتي، وضاعف من وعيي بذاتي وبهم وبآلاف الحيوات الحقيقية والمتخيلة. وعي عمَّق مأزقي وكثَّف إحساسي بزيفي، وإدراكي لكوني

لست ذاك النهر الأصلي بل شبحه. نسخة زائفة منه.

إحساسي بنقصاني دفعني إلى الإمعان في أن أصير كل ما لم يكن في إمكان أصلي أن يكونه. رغبت في إثارة حيرة كل من قد يراني. صرت نهراً بصفات البحر. يصطخب موجي ويتعالى وشيشي. وعندما أضجر يغور مائي حتى يكاد يجف، قبل أن يعاود الظهور باندفاع فيضان. أتلوى بين ضفة نباتية وأخرى حجرية حيناً، وأختفي تماماً كأنني لم أوجد قَط حيناً آخر. لا نسق أسير عليه. أتصرف كما يعنّ لي، وبما تمليه عليّ أهوائي.

لا أشعر أنني حلقة وصل بين ضفتين. أتشكك في وجودهما، بل في وجودي ذاته. أنا لا شيء. أردد لنفسي، وعندها فقط أبدأ في معرفتها، فيغمرني سديم هش في البداية، سرعان ما يصير ضباباً من المستحيل كشف حجبه، فأؤمن بأنّي الكون بأسره. بيضة فقست فخرجت منها الحياة تحبو محاولةً تقليل ضبابي ومائي لتأثيث بيت ملائم للعيش فيه.

أسمع همس من يطلقون عليها لقب «ربّة الطلاسم»، فلا أعرف من أي جهة ينبعث. يُشاع أنها تسكن الجبل الواقع على ضفتي الحجرية. زرعت نفسها بين صخوره، غير أنني أسمع همسها قادماً من الواحة الغافية على ضفتي النباتية، متسللاً من بين أوراق الأشجار واصلاً لعتبة أذني.

همس لا أقدر على فك شفرته. كأنما تحادثني بلغة تنتمي إلى ما قبل اللغة والكلام. يخطر لي أحياناً أنها لا تتكلم بقدر ما تئن، وتشكو من شيء يقض مضجعها. هاجس شرير يُسر لي بأن همسها ليس من طلاسم وإنما من همهمات بلا منطق، وأنها ربَّة بكماء صماء عمياء لا تملك سوى هذا الأنين الأجوف.

لكنني أنفض وسواسي عني بسرعة، وأنشغل عن التفكير فيها، بالاستغراق داخل ذاتي والتلصص على ذكريات وأحلام وخيالات الغارقين في جوفي.

على الرغم من كل شيء، ليس هناك أجمل من أن يسكن أحدنا أحلام الآخرين وخيالاتهم. يمنحه هذا قوى فوق بشرية، غير أن الاطلاع على الأسرار والذكريات مربك، إذ يقترن بإحساس بالذنب والمسؤولية، كأن المطلِّع شريك في أخطاء الآخر وجرائمه إن وُجِدت.

ما يثير فضولي أن أحلامهم وخيالاتهم لا علاقة لمعظمها بما هم فيه حالياً. لا ذكر فيها لواحة أو ضفة حجرية أو ربَّة ما، أو حتى لي، أنا الرحم المحتوي لهم لمدة لا أعلم مداها.

أحياناً تلوح ببال أحدهم مشاهد من مدينة احتضنتهم جميعاً ذات يوم، لكن كل ما يخطر لهم تقريباً ينتمي إلى مرحلة كانوا فيها كتاباً ومبدعين. من هذه المرحلة تأتيهم لمحات من أعمال كتبوها، وأخرى حلموا بكتابتها دون أن تسعفهم إمكانياتهم أو يتيح لهم الزمن

الفرصة الملائمة.

أستشعر إحساسهم بالخيبة، أو اليأس ما إن تخطر لهم شذرة تذكرهم بمحدوديتهم. أرق لحالهم، وأتمنى لو كنت قد شاركتهم ماضيهم. لو كنت قد اطلعت على ما دوّنوه بدلاً من تلقي شذرات منه تختلط بأخرى بحيث تكوِّن كولاجاً يصعب عليَ فك شفراته أو السير بين دروبه الوعرة.

أتعاطف على وجه الخصوص مع المغبونين منهم. من تعرضوا لظلم فادح أو انتهت حياتهم دون سابق إنذار قبل إنجاز عمل حلموا به وتوقعوا اختلافه عن كل ما سبق وأنجزوه.

ذاك الذي أردي برصاصة في الشارع، كان مشهد قتله يُستعاد في ذهنه وهو يرقد في أعماقي، فيتجاوزه بالانتقال إلى مشهد الشروق في مدينة صغيرة. أكاد أرى أشعة الشمس وهي تبدد ضباب الصباح، فتتبدى المباني وأبراج الكنائس والقلاع كأنما تنبعث من الفراغ. أخمن أنها مدينته الأم، وأتوق إلى معرفة تفاصيل أخرى عنها، غير أن ذهنه تغزوه عتمة مفاجئة فيخلد للراحة. تزوره كوابيس يرى فيها نساءً متأنقات ورجالاً متألمين وحيوانات ووحوشاً بوجوه بشرية تبدو جميعها كرسوم بقلم الفحم على خلفية كالحة البياض. لا تستهوينى الرسومات بسوادها الفحمي وبياضها المغبَّر، فأنتقل إلى راءٍ آخر.

حين ألج ذاكرته أجده يستعيد لحظة جلس فيها على مقعد في حديقة عامة وبيده كتاب يقرأ فيه لبعض الوقت، قبل تنحيته جانباً ليتأمل الأشجار والنباتات القريبة، ثم يشرع في تدوين ملاحظاته عنها في مفكرة أخرجها من جيبه. يسجل أسماء الطيور المغردة حوله، وأحوال الأشجار وأوصافها، عدد رواد الحديقة وكيف يشغل كل منهم وقته فيها. يفكر في أنه سوف يستخدم تلك المادة لاحقاً.

ينتقل من الحديقة إلى طريق منحدر حيث يتوقف قلبه فتتدحرج جثته للأسفل. لم يختر مستقره النهائي في داخلي، ومع هذا يحاول عقله التواؤم معه بعد أن لم يعد هناك مكان لجسده.

غير أن من أثار فضولي أكثر من غيره كان من ظل خياله وذاكرته مشدودين إلى «ربَّة الطلاسم» بحيث اضمحلت – إلى جوارها - ذكرياته وخيالاته الشخصية.

مثَّل استثناءً وسط رفاقه المنغمسين في تجسدات ماضيهم. ورغم ألفتي مع جغرافيا أحلامه فإنها لم تخفق مرة واحدة في إدهاشي.

رافقته في صحراء قاحلة. خطوت معه بين أطياف سرابية متتالية. استكشفت برفقته مبانيَ تغطيها النباتات فوق جزيرة منسية. غير أن أكثر ما حبس أنفاسي كان متابعته بينما يحلم بالغوص في بحيرة من زئبق. شعرت كأنما أسير بجواره في باطنها متآلفاً مع ما

يحتويه. أبهرت أشعة الشمس عينَيَ ما إن صعدت معه إلى سطح الأرض من جديد.

تفحصت بعيونه متون جداريات مطلسمة، وتشوقت مثله لفك إعجامها وفتشت معه عن نسق محتمل تتبعه. قبعت في مدرجات ساحة مربعة أشاهد ما يؤديه من رقصات لا أعلم على وجه اليقين إلامَ ترمز، وإن كنت حدست بصلتها بالمعبد وربته. حدسٌ سرعان ما وأدته لعلمي أن هذا الرائي لم ينجح في بلوغ ضفتي الأخرى، بدليل وجوده في أعماقي. هدهدت حيرتي بإخبار نفسي أن هناك خبايا لن يسعني أبداً الإلمام بها.

حاولت بلا طائل رسم خريطة متخيلة لمكان أحلامه أو ذكرياته أو خيالاته هذا. كانت الأجزاء المقتطعة تلوح لي لامعة الوضوح، لكنها تخفت وتكاد تغيب كلما حاولت نسجها مع غيرها بحيث تشكّل نسيجاً كلياً شاملاً.

لم يساعدني بدوره إذ بدا مولعاً بالشظايا. ينغمس في التفكير في جدارية ما بكل ما تحتويه وما إن أتقمصه وأقترب من تبيّن معنى المدوّن فوقها، حتى ينصرف للتفكير في تمثال ما أو واجهة بيت لا داخل له.

لولا معرفتي بأنه في حالته هذه غير قادر على المراوغة لظننت أنه يتلاعب بي. خطر لي أن ثمة عقلاً ماكراً يسخر منا معاً، فاحتميت بعدم اكتراثي. إلّا أن عدم الاكتراث هذا كان ينهار أمام راءٍ آخر لطالما وصلني من ناحيته خواء تام، كأن عقله في غيبوبة لم تبقِ في

داخله سوى غبار كثيف وستائر يعبث بها الهواء فتطير بلا توقف. من خلف الغبار راحت تخايلني قلعة أشبه بصورة مهتزة في طريقها للتلاشي. تتضح تارة وتتسرب مني فلا أعود أراها تارة أخرى. لم تكن ذكرى أو فكرة مسيطرة عليه، بل طيفاً يلازمه مثل أنا ثانية متوارية بين ثناياه خلف طبقات من الغبش. كقرين حجري يخيفه ويغويه ويتحداه في آن.

في الحال، تراءى لي ذاك الفارغ ذهنه من كل شيء بيتاً مهجوراً خالياً من الأثاث يعشش العنكبوت في زواياه ويتراكم التراب على حوائطه وأرضياته، طريقاً مهملاً يتجنبه العابرون، شبحاً يهرب من ماضيه.

أورثني هذا انزعاجاً مبهماً. ذكرني بحاضري، فعدت للتفكير في نهر أصلي صرت شبحاً له، ونسخة زائفة منه. لطالما كانت هذه الفكرة تعيدني إلى رشدي. تفيقني من سُكْرَتي وتملؤني باللاجدوى، غير أنها لم تنجح قط في إزاحة فكرة نهر أتخيله جموحاً غضوباً قادراً على تفتيت أصلب الصخور.

على ضفته الغربية بساتين موز ونخيل وأعناب تلوح من خلفها سلسلة جبال مختبئة في ضباب ثقيل. أكاد أرى هذه الجبال الماثلة كحارسة أسطورية للنهر تطل عليه وتراقب - من مكانها - ضفته الشرقية بأشجار الصفصاف المائلة أغصانها نحو الماء، وبالبيوت المتناثرة هنا وهناك وقاطنيها الحالمين بالنهر وجنياته والخائفين

من فيضانه الصيفي.

أستعيد هذه الصورة الحية فأسأل نفسي: أين توارت الحياة؟ أين غابت عني؟ ولماذا تركتني في هذا الخواء الممتد؟

شجرة تشبه لؤلؤة

كنت مهداً لأوزوريس. أنجبته نوت ربَّة السماء في تجويفي. كنت قبراً له. تابوته كان جذعي بعد تفريغه كي يستقر به الجثمان.

كنت مهداً ولحداً، حياةً وموتاً. قالوا إنني شجرة الحياة، وأيضاً شجرة الحب. والآن أقف على ضفة نهر وسط نباتات أخرى، لكل منها حكايته. لكل منها أسطورته. بعضها مطلٌّع على تاريخه، وأغلبها ساهٍ عنه. لستُ من الغافلين، بل من العارفين، غير أنني أفوق ما عداي، لأنني وحدي أدرك دوري في هذه المرحلة.

لستُ منارة لإرشاد العابرين، بل لتضليلهم، لإغراقهم في أوهام السراب. الحكيم سيتحاشاني. الرائي الحقيقي لن يقترب مني. وسوف أظل في مكاني داخل واحتي. راسخة محمية بمئات الأشجار والنباتات الموظَّفة كقناع يخفي وجهي وجوهري عن المتلصصين المحتملين.

الواحة بكل ما ومن فيها دخان يموِّه على وجودي ويغبِّشه. تميمة ساعية لحفظ سري، ومع هذا لا يسلم الأمر من حمقى يتسلقونني طمعاً في رؤية الضفة الأخرى. يظنون أنهم سيتمكنون – إذا اعتلوا قمتي - من الاقتراب ممن يسمونها «ربَّة الطلاسم».

لا يعرفون أنهم بهذا قضوا على أي فرصة لهم في الوصول إلى روح العالَم. اختاروا أن يظلوا محبوسين

داخل الواحة، تائهين بين أشجارها، يوم تجرؤوا عليّ. لن يمتلكوا شجاعة مغادرة أماكنهم أبداً.

خطؤهم الأساسي أنهم لم يفطنوا – وهم فوقي – إلى الاتجاه الذي عليهم التحديق فيه إذا ما رغبوا في رؤية ما وراء الظاهر. لم يشرق عقلهم بفكرة أن الطريق الموصل لكل ما هو جوهري في الكون يمر عبر التحديق في الداخل. لم يستوعبوا حقيقة أن الخرائط المرسومة على جذعي، وآثار الزمن المحفورة على ساقي وفروعي، كفيلة بإخبارهم بكل ما تاقوا إلى معرفته.

لكن أنّى لهم الرؤية وعيونهم شاخصة إلى البعيد؟! كيف يتدبرون وأنظارهم مشدودة إلى ربّة خفية عليهم، مع أن بمقدورهم – لو عقلوا - رؤيتها وتلمسها في كل ما عداها!

وحدي كنت أستشعر لهفة المتسلقين، أنصت لتنفسهم المضطرب، وألتقط أخفت خلجاتهم. تماهيت مع أشواقهم ورغباتهم، تسامحت مع شططهم وحماقتهم، لكنني لم أغفر لهم غباءهم، ولم أتفهم عمى بصيرتهم.

على طريقتي، وبلغتي الخاصة، همست لهم أن ينظروا إليّ ويتفحصوني إذا رغبوا في استقراء طلاسم الربّة. ألقيت لهم العلامات في درب صعودهم وهبوطهم، لكنهم داسوا عليها ودنسوها. اقتطع أحدهم جزءاً من لحائي، وألقى آخر ثماري الناضجة على الأرض، وسخر ثالث في سريرته من لون أوراقي وضخامتي وانعدام

انسيابيتي.

غير أن كل هذا ليس من دوافع عدم تعاطفي معهم، بل عماهم وإخفاقهم عن رؤية أنفسهم والعالم من حولهم. كان لقبهم يضحكني ويسليني. من بين مئات الأوصاف والألقاب أطلق أهل الواحة عليهم لقب «الرائين». آه، لو علموا ما احتواه الوصف من مفارقة.

لو أدرك أهل الواحة مدى التضاد بين الصفة والموصوف لضحكوا معي، لتشاركت وإياهم لحظة سحرية ترتقي بهم إلى مصاف المقدس. لكانوا إياي وكنت إياهم. لاقتربوا من الربة الغامضة كما لم يحلموا قط.

مؤكد أنها من أوحت لهم بإطلاق هذا اللقب على ثلة الطائشين هؤلاء. في مقدوري، بعد مرور كل هذا الوقت، فهم أمزجتها والتواؤم مع حس السخرية الغريب لديها.

حس السخرية نفسه، الكامن خلف أن تكون بحيرة الزئبق الموجودة، خارج حدود الواحة، على هيئة دائرة بداخلها مربع، وأن تكون خفية على من ينشغلون بتسلقي. أحياناً أتساءل إن كانت ربة الطلاسم تريد لأحد حقاً بلوغ ضفتها. تبدو لي كمن يضع العراقيل أمام أي طامح في العبور إليها. لا يمكن تبرير الأمر بولعها بالألعاب والأحاجي. لطالما حدستُ أن الأمر أبعد من هذا. كأنها تنتظر قادماً بعينه وفي الأثناء تضع الجميع في اختبار تلو الآخر واثقةً من أن من تنتظره هو القادر وحده على اجتياز اختباراتها.

أقف في مكاني، بعيدة نسبياً عن البحيرة، ومع هذا ألتقط الذبذبات الصادرة عنها، وأكاد أرى الأبخرة المتصاعدة منها والطيور المعلقة فوقها. حين يتجاهلني أحد السائرين في دروب الواحة، أو يمر بجواري دون الانتباه لوجودي أسأل نفسي إن كان هذا الغافل عني أحد القادرين على رؤية البحيرة، ولو كان كذلك أيكون القادر على إبطال تعويذتها؟ تلك التعويذة الملقاة في ثنايا المربع السحري الساكن في دائرة البحيرة، بحيث تمنحه القدرة على جذب أي كائن حي يقترب من حرمها. وحدها الطيور المحلقة في السماء تستعصى على الابتلاع. تكتفي التعويذة بشل حركتها فتظل متجمدة في وضع الطيران.

أعرف أن الناظر إلى هذه البركة من مسافة مناسبة، يمكنه رؤية سطحها البراق والأبخرة السامة المتصاعدة منها، والطيور المحلِّقة فوقها بلا قدرة على الحركة الفعلية.

كما أعرف أن الشخص القادر على النجاة من سموم الزئبق في حال ابتلعته البحيرة، هو من سبق له القراءة عن شيء يماثلها أو يقترب منها. قد لا يعرف هو أن قراءاته السابقة هي ما أنقذه، وقد لا يتوقف كثيراً أمام تفصيلة أن مسطح الزئبق لم يبتلعه سريعاً كما رآه يفعل مع فهود ونمور وخيول وجرذان اجتذبها نحوه كما لو كان مغناطيساً هائل القوة، قبل أن يغرقها في أحشائه.

أتعاطف مع من لديه القدرة على رؤية ما لا يراه

غيره، وأشفق عليه من عواقب هذا. لم أجرب أعماق البحيرة، ولست على مسافة تمكنني من رؤيتها ومتابعة ما يحدث في محيطها، لكنني متأكدة من أن من يستحقون التسمم ببخارها والغرق في قاعها ليسوا الرائين الحقيقيين بل الحمقى المهووسين بي والساعين لمراقبة الضفة الأخرى من فوقي.

غير أنّي لم أعد أنشغل بهم على أي حال، فتماثلهم يضجرني. يبدو كل منهم نسخة باهتة من الآخرين. للتغلب على ضجري منهم، صرت أستعيد شذرات من ماضي. فذات يوم كنت أقبع على أطراف قرية منسية، بعيداً عن البيوت، على مقربة من حقول مزروعة بالكتان والقمح والشعير، وبجوار جدول مائي يسبح فيه البط والإوز.

في الصيف وقت الظهيرة كنت أرقب من وقفتي الثعابين والأفاعي وهي تزحف قاطعة الطريق من جانب إلى جانب تاركةً آثارها الأسطوانية في التراب. تختفي في جحورها ما إن يطيب الجو، فيعرف العابرون بوجودها من أثرها المخاتل. يتركون لي الإنصات لفحيحها والمقارنة بين ألوان جلدها.

كنت أتعرف على أصوات الطيور والحيوانات، وأميِّز أنواع الصمت. أنتبه إلى أخفت نأمة دون حاجة إلى بذل أدنى جهد في التركيز، لكنني كنت أستفيق وأشحذ حواسي كلها حين تأتي تلك الطفلة للعب بجواري.

كانت صغيرة معفرة الوجه مشعثة الشعر، لكن لها

روحاً اختبرت الوجود واختزنت عصارته داخلها. بعصا وجَدتها أسفل شجرة زيتون مجاورة، اعتادت رسم علامات ورموز على الأرض بجواري. كانت تبدو مستغرقة في ما تفعله ساهية عن العالم من حولها، فأستغرق بكياني كله في مراقبتها وتأمل رسومها. لم أكن متأكدة إن كانت مدركة لكُنه ما تخطه يداها، أم أن شيطاناً مُلهِماً يمليه عليها، وهي مجرد وسيط غافل.

اعتادت أن تربت جذعي كما تفعل أم مع وليدها. تتسلقني برفق حبيب يداعب حبيبه. تختِّن ثماري بسكين صغير تمهيداً لنضجها، فيسيل اللبن على جذعي ابتهاجاً. كنت أتساءل: من يمكنه تكليف صغيرة مثلها بمهمة تحتاج دربة كتلك! غير أن مهارتها في أداء عملها وحنوها على الثمار النيئة - لا تزال - مثّلا دوماً رداً كافياً.

أتذكرها، في هذا الفراغ اللانهائي، فيعتريني الفضول لمعرفة مصيرها. أحدس بأنها لا بدّ نجمة أو بحيرة أو تل أخضر. قطعة مرمر صقيلة أو حجر من الألماس الخام أو صقر محلق في سماء جديدة كل يوم. هذا ما يليق بروح عتيقة كروحها. لا أتخيلها أبداً في صورة بشرية. كان هذا طوراً عليها المرور به مرة واحدة لاختبار كل الصور الممكنة، طوراً تجاوزته سريعاً. وحتى وهي فيه عاشت بشروط روحها الثرية المتعددة الموقِّرة لأبسط ذرة غبار في هذا الكون المترامي.

في مرحلتي الحالية لا تحتاج ثماري إلى تختين.

تنضج من تلقاء نفسها. وحين تطيب تماماً تتساقط تحتي، وتُترَك في مكانها حتى تتحلل وتتغذى عليها الأرض، تلك الأم المفترسة.

لا يحاول أحد أكلها أو حتى لمسها. حتى من يتجرؤون على تسلقي يحاذرون الاقتراب منها، ربما لأن القلة التي بلغت من الحماقة ما جعلها ترميها على الأرض، عوقِب أفرادها ما إن هبط كل منهم من فوقي. منهم من سقط وانكسر عنقه، ولم يبادر أحد بدفنه، بل بقي حتى تحلل وتغذت الأرض على جسده مثلما سبق وتغذت على ثماري. ومنهم من فقد عقله وظل ساجداً على ركبتيه تحتي يتلو صلوات غير مفهومة لغيري أنا الواقفة إلى ما لا نهاية في موقعي هذا منصتة لأصداء خافتة يحملها النسيم وتضاعف قوتها الريح إن هبَت. أختزن الحكايات والحيوات. أقتات عليها فأزدهر. تنمو لي وريقات جديدة أنضر. أظل واقفة في مركز واحة هي محارة أنا لؤلؤتها وما عداي رمل وأصداف.

بحيرة الزئبق

«هذا زئبق».

قلت لنفسي بينما أقف أمام بحيرة من سائل ثقيل تتصاعد منه الأبخرة. بالأعلى كان ثمة طيور، مختلفة الأشكال والأحجام، مشلولة في وضع التحليق ومعلقة بالفضاء.

بدا المشهد مألوفاً. عصرت ذاكرتي متسائلاً أين صادفت ما يشبهه، فلم أصل لإجابة مؤكدة. فقط بزغت في مخيلتي بِركة أخرى سطحها براق وتتطاير منها أبخرة كثيفة. كانت ذكرى مبهمة. لم أدرك من أين التقطتها، ولا ما الذي تعنيه. أخبرتني فقط أن المشهد المواجه لي ليس جديداً.

خطر لي أن ثمة بركة مسحورة وُجِدت يوماً في مكان ما من العالم، وأنني قرأت عنها أو صادفتها بطريقة ما. تذكرت شيئاً عن قوة جذبها الكفيلة بابتلاع الكائنات الحيَّة في محيطها، وعن قدرتها على شل حركة الطيور المحلِّقة فوقها.

ثم عادت ذاكرتي لخوائها، ولم يبق سوى ما أراه أمامي: بحيرة بسطح لامع مصقول وأبخرة مهتزة في صهد الظهيرة وطيور مثبتة بالأعلى في وضع تحليق لا يؤدي إلى مكان.

انتبهت إلى بقايا أعمدة في الجهة الأخرى من البحيرة. سرت مع الشاطئ الدائري صوبها وحين

وصلت إليها، فاجأتني النقوش والرسوم المدونة عليها.

لم أعرف إن كانت نصوصاً بلغة حقيقية أم مجرد خربشات. استغرقت في تأملها. لاحظت رسوماً لبجعات وصقور وغربان ونعام ولقالق. تشكيلة كبيرة تعرفت على بعضها، وبدا لي بعضها الآخر غريباً. دققت فيها مرة أخرى، ثم نظرت نحو مثيلاتها المتجمدة في الهواء. كل طائر مشلول وثابت في الفضاء كان له قرين مرسوم.

انتقلت من عمود إلى آخر فلاحظت فهوداً ونموراً وخيولاً محفورة عليها مع غيرها من حيوانات برية. مواصلاً سيري بين الأعمدة العتيقة تعثرت في شيء لم أدرك كنهه للوهلة الأولى. ارتميت على الأرض، وقبضت عليه لأجده إزميلاً.

دونما تفكير قمت من سقطتي حاملاً إياه في يمناي. بحثت حتى عثرت على بقعة خالية فوق أحد الأعمدة. بتصميم وشغف بدأت في حفر ما ظننت أنه تصوير لجسدي. كنت أتوقف لثوانٍ متأملاً نفسي، ثم أواصل الحفر من جديد، متجاهلاً العرق والإجهاد والرائحة الكريهة للأبخرة.

ما إن انتهيت من آخر تفصيلة في رسمتي حتى فوجئت بقوة جذب هائلة تسحبني نحو مسطح الزئبق. لم أحاول المقاومة، أو بالأحرى لم يُتَح لي الوقت الكافي للتفكير في أي شيء.

قبل أن يلمس جسدي السائل الثقيل خمّنت أني سوف أتسمم به وستكون هذه نقطة النهاية في رحلتي.

انغلق سطح البحيرة عليّ فشعرت بالاختناق. خُيِّل إليَّ أني محبوس في قعر بئر يضيق باطِّراد مهدِداً بتهشيمي في أي لحظة. لا أعرف كم بقيت على هذه الحال، ثم بلا مقدمات أحسست كأن غشاوة ما تنزاح عني. تكشفني للكون وتكشفه لي.

فوجئت بضوء اضطررت معه إلى إغماض عينَيّ، وحين فتحتهما من جديد لم يكن هناك أثر للزئبق أو ما يدل على أنّي غارق في أعماق بحيرة ما. كانت يدي قابضة على الإزميل لا تزال، وكان هذا دليلي الوحيد على ما سبق واختبرته. نظرت فوقي فلمحت سماءً غائمة. سرت في ممر أرضيته مُعَبَّدة بأحجار خشنة، فوق الجدران على الجانبين كانت هناك جداريات ملونة، فحرصت على عدم الالتفات لها.

حدس مبهم أسر لي بأن الانشغال بها ينطوي على خطر داهم. في نهاية الممر، وجدت دَرَجاً ارتقيته بمجرد بلوغي إياه. ما إن صعدته حتى غبت عن الوعي. للدقة، لم أفقد وعيي تماماً، إذ ظل جزء من مخي نشيطاً. وعبره كان هناك في إغماءتي هذه ما يشبه شاشة ذهنية تعرض عليّ مشاهد مختلفة سبق لي اختبارها بشكل أو بآخر.

اقتحمتني فكرة، أن هذا الغياب عن الوعي سوف يتكرر، وأنه سوف يكون وسيلتي الوحيدة لاستعادة بعض من ألق ذاكرتي. بحيث كلما ذوى انتباهي لفترة، سطعت لمحات من حياة ربما عشتها أو تخيلتها أو حتى

قرأت عنها.

فطنت إلى أن الشاشة الذهنية لا تعرض مخزونها كأحداث مستعادة من ماضٍ قريب أو بعيد، بل كحاضر عليَ أن أنحبس فيه. رأيت نفسي راعي ماعز في قرية جبلية. كوخي يطل على منحدر خطر، وقطيعي يرعى في الحرش المجاور. كنت أتفحص المنحدر - من أعلى - فأبصر غابة هائلة لا تترك مجالاً، في السفح، لما عداها. أنظر للسماء المزينة بالسحب. أتحاشى التحديق في الشمس. أعود نحو قطيعي. أربت رأس عنزة كسول ثم أدخل الكوخ وأغلق بابه خلفي. بعد قليل تتصاعد النيران من داخلٍ تحوَل إلى قطعة من جحيم. راقداً في فرشتي رحتُ أنتظر اقتراب اللهب من جسدي.

كدت أختنق، وجسدي تلسعه الحرارة حين اقتربت النار مني. خطر لي لاحقاً أنه قد سبق لي قراءة ما يماثل هذا المشهد في رواية ما، لكن في أثناء غيبوبتي المؤقتة لم أفكر سوى في أنني والراعي شخص واحد.

سرعان ما استحال كل شيء رماداً انبثق منه مشهد آخر، رأيت نفسي فيه امرأة تتسلق جبلاً أجرد. أتفادى بصعوبة صخرة متهاوية في طريقها للسفح. أستريح قليلاً، قبل مواصلة رحلة صعودي. أشم رائحة عرق، ويضيق تنفسي من العلو الشاهق. أرى السحب بعضها مجاور لي، وبعضها الآخر أسفلي، فأتناسى تعبي. يُخيَّل إليَ أنّي أرتقي السماء نفسها.

استفقت من إغماءتي دون التخلص من إحساسي

بالإرهاق، كأنما كنت أتسلق جبلاً بالفعل. نظرت حولي، فلم أتعرف على محيطي. تحركت بتثاقل. أمعنت النظر في الجبل القريب وأنا أتجه نحوه. عندما اقتربت لاحظت تشكيلات الصخور والأشكال المنحوتة في جسده. بدا المكان مألوفاً لي بطريقة يصعب تفسيرها. خطر لي أن الوصول إلى هنا كان حلماً لطالما راودني، لذا عليّ أن أفرح، لكن بدلاً من الفرح باغتني شعور طفيف بخيبة الأمل. شعور جمّدني في مكاني كأنما استحلت تمثالاً من ملح.

ترددت في رأسي جملة مفادها أن حدسي خانني والريح خذلتني. لم أفهم ما يعنيه هذا، وإن استعدت ذكرى مخاتلة من زمن منفلت كنت فيه واثقاً، على نحو غيبي، من أن عاصفة هي ما سيطير بي إلى هنا. حدستُ بأن هذا الإحساس تملكني بعد أن فاجأتني الريح في أثناء جلستي على شاطئ نهر ما، وأطاحت بي بمجرد وقوفي. بعدها صاحبتني الريح لفترة. بتُّ مفتوناً بقوتها وهيجانها. تضرعت إليها كي تحملني إلى كل ما أرغب فيه من أماكن.

حاولت استدعاء تفاصيل أكثر عن هذا النهر، أو سبب جلوسي على شاطئه، أو على الأقل أسماء الأماكن التي رغبت في أن تحملني الريح إليها، فلم أفلح.

خشيت الاقتراب أكثر. لم أعرف ما عليّ توقعه، لكن الرهبة ملأتني. تساءلت، في سري، إن كان الوصول إلى هذا المكان قد مثّل لي يوماً حلماً شخصياً بالفعل، أم

أنني فقط كنت منساقاً وراء إغواء أجهل منبعه.

نفضت السؤال عن ذهني لأن صوتاً داخلياً أخبرني أنّي لم أختر المجيء إلى هنا. قد أكون سهرت الليالي بالفعل على ضفة نهر، حالماً بالانتقال إلى عالم الصخور والأحجار هذا، لكنني أنجزت الأمر، في نهاية المطاف، كحاطب ليل.

ربما كان الفضول دافعي الأول لملاحقة ما لا أعرف، وصوَّر لي غروري أنّي سأنجح في مسعاي. وقد نجحت، ليس لذكائي أو مهارتي، إنما بفضل مصادفة عمياء. لم يكن في مقدوري مقاومة قوة جذب بحيرة الزئبق لجسدي على أي حال.

توقفت للحظات، ونظرت خلفي فرأيت على مدى البصر نهراً ذا أمواج صاخبة، كأنما لبحر، تمتد خلف شاطئه الآخر واحة وارفة.

عصيت رغبتي في التمتع بجمال المنظر وواصلت خطوي نحو الجبل. بعد قليل استدرت مجدداً فلاحظت أن النهر لم يعد له وجود. دققت النظر أكثر متصوراً أن عينَيَ تخدعانني، فانتبهت إلى تلاشي الواحة هي الأخرى.

لم أرَ مكانهما سوى فراغ ممتد. على مقربة ما يشبه تضاريس شاطئ صخري، لكن لا مسطح مائياً موجود، لا نهر أو بحر أو حتى جدول. ولم يعد ثمة ما يدل على وجود سابق لنباتات أو أشجار.

شعرت بانزعاج شديد، كأن الواحة التي لم أبصرها إلّا

لدقائق، ماضيَ وهويتي الشخصية، ومن ثمَ تركني اختفاؤها ضائعاً ومشرّداً ويتيماً.

خلَّفت ماضيَ ورائي، واستدرت نحو حاضري. اقتربت حتى كدت ألتصق بواجهة الجبل. استلبتني بنقوشها وصخورها. حروف وكلمات بلغة تامة المجهولية بالنسبة إليّ. في أعماقي، آمنت بقدرتي على فك إعجامها. استغرقت في تفحص المتون المدونة أمامي. بدا جسد الطود الراسخ كتاباً عملاقاً، يقع عليّ وحدي عبء قراءته وتمثل ما فيه. وتراءى لي العالم بكامله نصاً مستغلقاً عليّ فتح مغاليقه، ولغة منسية عليّ استعادة أبجديتها.

انتقلت من صخرة لأخرى. دققت في بيوت وقلاع منحوتة في الصخر. حدست بأنها جزء من اللغز. قطعة مركزية لا حل للأحجية بدونها.

اكتشفت أنّي أمام قرية مشيَّدة في هيكل الجبل، أو بالأحرى أمام ما تبقى منها. كانت البيوت مصممة بواجهات مزخرفة ومزينة برسوم ذات تفاصيل دقيقة تصوّر كرنفالات ومشاهد احتفالية وطقوساً مبهمة. تفحصتها ودرت حولها لأفاجأ بأنها مجرد واجهات لا منازل حقيقية خلفها. تتبعت ما يُفترض أنه شوارع وطرقات مشقوقة في الشعاب أو مصممة على هيئة سلالم ومدرجات منحوتة في جسد الجبل. لاحظت وجود نسق متكرر: سبعة بيوت، أو بالأحرى واجهات بيوت، تكوِّن معاً دائرة يتوسطها طريق مدرج يقود إلى

قلعة بأبراج وقباب. يمر عبر القلعة ممر عبارة عن تجويف في الصخرة المكونة لها، يؤدي في النهاية إلى ساحة مربعة مقسمّة إلى مثلثين متساويين.

الضلع الأقرب للقلعة لا يحده شيء، فيما الأضلاع الثلاثة الأخرى ينتهي كل منها بمدرجات أشبه بتلك الخاصة بمسرح في الهواء الطلق.

يتكرر الأمر بالترتيب نفسه. دوَّخني أن كل المباني المفترضة للقرية الصخرية واجهات لا تخفي وراءها شيئاً. حاولت تخمين السبب، فلم أصل لإجابة تريحني. قضيت وقتاً لا بأس به أقطع الطرق المدرجة. رحت أمر تحت الأقواس المؤطرة للتجويف المخترق للقلاع الصخرية، وأصل إلى الساحات المربعة. أقف في كل منها رافعاً رأسي للسماء، متخيلاً جمهوراً وهمياً يتابعني من المدرجات المحيطة بالساحة من ثلاث جهات. أكاد أسمع صياحاً وتهليلاً وصرخات حماسية، فأتوه عن خطوتي التالية.

انهمكت في أداء رقصة ابتكرتها بينما أؤديها. بذلت ما وسعني كي يصل جسدي لذروة التناغم مع موسيقى الكون الخفية. أغمضت عينيّ، ووقفت على قدمي اليمنى فيما رفعت الساق اليسرى ومددتها خلفي، موازناً جسدي عبر مد الذراعين بالتوازي مع الأرض. رأسي مطرق، بينما ذهني سابح في كون آخر، وعيناي المغمضتان تجوسان في داخلي بحثاً عن ما خفي عني.

تمنيت لو أن عيوناً خفية تتفرج عليّ من مكان ما. لم

أرغب في إثارة الإعجاب، ولم أطمع في الدعم. في استغراقي داخل جسدي، كان ثمة ما أوحى لي بأني في مصاف الآلهة.

رجفة منعشة اعترتني بينما أقلِّب هذا الخاطر في رأسي. غمرني شعور بأنني هنا بحثاً عن شيء ما، وآلمني أن مبتغاي الغامض لم يتجسد لي بعد، لكنني كنت واثقاً من وجوده كطلسم يعادي الوضوح، ويمعن في الإبهام والإلغاز.

غيّرت من وضعي. تمددت على ظهري. عيناي لا تزالان مغمضتين، ووجهي يتجه صوب سماء غائبة عني. فكرت في أن ما أسعى خلفه ربما يكون موجوداً في ممالك الفَناء التي انبثقت في خيالي كما الذكريات.

في متن ما، لا بدَّ من أنني قرأت عن أراضي الفَناء وعوالمه. ربما وطأت جغرافيته ولمست تضاريسه في طريقي إلى هنا. لا أتذكر، على وجه اليقين، كيف حدث هذا، لكني موقن من أنني سبرت غور الفَناء بطريقة ما. اخترقت الحُجُب، وارتحلت عبر طبقات الوجود. غصت في أعماق الأرض، ارتقيت من سماء للتي تعلوها. سافرت في الفراغ الشاسع.

وقبل كل شيء، تحسست ما لم يتحسسه غيري. رأيت المتواري في الضباب وخلف الدخان والسراب. ذكّرني الأخير بجنيته التي طفت على سطح ذاكرتي قاهرةً نسياناتي. اعتدلت جالساً، وأخذت أخط فوق رمال الساحة ما أتصوّر أنه هي. لم يكن ما أخطه

حروفاً، بل رسومات تصف معناها بالصور. رسمت خيوطاً متعرجة تشبه البخار، ومشاهد نصفها واضح الخطوط ونصفها الآخر يضمحل ويخبو.

خطر لي أني سأقبض على جوهرها، وأثبتها في وضع جمود ومن ثمَ آمن مكرها للأبد، لو استطعت رسم مجاز الوهم. في الحال أدركت صعوبة مهمتي، خاصة أني قررت حفر رسوماتي فوق الصخر، لا نثرها هكذا على الرمال المتطايرة مع أول هبّة ريح.

تذكرت الإزميل الذي كنت أقبض عليه. كنت واثقاً من أنني ظللت ممسكاً به حتى بلوغي هذا العالم الصخري. عزمت على العودة إلى حيث أفقت للبحث عنه واختيار بقعة خالية من الكتابة والنقوش كي أسجل عليها جداريتي عن مجاز الوهم، وجنيّة السراب الزئبقية.

نفضت الرمال عني، وعدت هابطاً بينما أعدّ الدرجات. تمهلت تحت القوس وداخل الدائرة المتوسطة للبيوت السبعة. أمام واجهة الجبل، انحنيت إجلالاً للرسوم والنقوش المحفورة عليها. في البقعة حيث أفقت من إغماءتي كان الإزميل ينتظرني. التقطته واقتربت من الجبل، درت حوله بحثاً عن صخرة لم يسبقني إليها أحد، فلم أجد. صعدت بعض الدرجات وفتشت بلا طائل. واصلت الصعود حتى بلغت قلعة أكبر من بقية القلاع. أخِذت بضخامتها، واندهشت كيف لم أنتبه إليها من قبل. بدت كأنما انبثقت من العدم. لم

تمسسها يد قبلي. صخورها ملساء صقيلة تبرق ما إن تنعكس أشعة الشمس عليها.

شرعت في الحفر بإزميلي. كنت كالممسوس. بدلاً من نحت ما نويته، وجدت نفسي أسجل مشاهدَ لا أعرف من أين تأتيني. صوّرت رجلاً يستعد للقفز في الفراغ، وبحراً هائجاً، وسفينة يرفعها الموج لأعلى قمة ممكنة، وجزراً تسكنها السحب، وشلالات تصب من السماء للبحر، وصحراء تتراءى فيها واحة من بعيد، ونهراً له صخب البحر واندفاعه.

بدت هذه الأشياء مألوفة، غير أن مشاهد أخرى تتالت على رأسي دون أن أشعر تجاهها بأي ألفة. كانت تتجسد متحركة أمام عينيّ بمجرد نقشها على الصخر. تناسيت العالم خارجها، وصلت الليل بالنهار. لم أشعر بإرهاق ولم أفكر في راحة.

مثّلت جداريتي في معظمها بيوتاً مهجورة، وأراضي خلاء، ومسطحات مائية شاسعة. لم تكن هناك روح حيّة واحدة تبين فيها. كان عقلي يقترح عليّ عالماً خالياً من البشر والحيوانات والطيور والزواحف والحشرات. فقط جمادات. ماء وتراب وهواء وحجر، ثم أُضيفت إليها النار، وظهرت النباتات لكنها كانت مخيفة. شعرت برهبة من مجرد تخيلها، فما البال حين تجسدت أمامي وشعرت بنفسي في مواجهتها بمجرد نقشها. كانت الأشجار والأعشاب والزهور كأنما تبصر وتفكر. بدت شريرة بطريقة ما، كما لو كانت تنتظر الفرصة المناسبة

للانقضاض عليّ ومحوي من عالمها.

على الرغم من الرهبة، انتابني انتشاء غريب بسبب ما كان إزميلي يقودني إليه. ارتحل صوبي كل ما تخيلته وقبع عند أطراف أصابعي. الغياب التام للبشر شككني أنا نفسي في بشريتي. مؤكد أنني أنتمي إلى عالم خيالاتي بشكل ما. هذا ما فكرت فيه بينما أواصل الحفر.

انقطع إلهامي فجأة. توقفت المشاهد عن التدفق على مخيلتي ومن ثم عن التجسد أمامي. رفضت يداي الانصياع لفقر مخيلتي المستجد. واصلتُ نقش ما يشبه الحروف والعلامات. بعضها مثَّل كائنات حية، كأنما أعوضها عن غيابها الفادح عن مشاهد خيالاتي السابقة.

داهمتني فكرة أن جداريتي تشبه غيرها من الجداريات المجاورة. لو قُدِّر لغريب أن يتفحصها لظن أنها تنتمي إلى المتون الأصلية. أضحكني وصفها بالأصلية. نجاحي في إضافة رسومات وكتابات تكاد تماثلها، شككني في أصالة أي شيء. تحركت للتدقيق في المدوَّن على صخرة قريبة ومقارنته بما دوَّنته أنا ورسمته. تمثَّل الفارق فقط في أن متني ما زال مكسواً بغبار الحفر، ولم يتأثر بعد بالشمس وعوامل التعرية.

عنَّ لي أن الزمن وحده كفيل بجعل التماثل تاماً. أربكني هذا. تعثرت به وتدحرجت معه. لم أدرك ما الزمن، كما لم أعرف من أين واتتني هذه المفردة. تشاغلت عنها بالتفكير في خاطر أكثر إرباكاً مفاده أنني

أو قرين لي من دوِّن باقي المتون، ثم لسبب ما تهث عن هذه الحقيقة. الفكرة على غرابتها بدت لي أكثر طمأنة من أن يكون هذا العمل ابناً للفوضى. خربشات خربشها شذاذ آفاق وعابرو سبيل ورحالة وصلوا إلى هنا بمحض المصادفة، ووجد كل منهم نفسه كأنما يمتثل لأمر خفي برسم وخط ما يخطر له، أو للدقة ما يمليه عليه خيال جُنَّ فجأة وخرج عن نطاق سيطرته.

سرت على غير هدى، وصلت إلى مدرج موازٍ للذي ارتقيته قبل قليل. صعدت درجاته نحو الصخرة المكوّنة لقلعته، أو للدقة لواجهة قلعة لا داخل لها. نمت في ظل القوس المؤطر للتجويف المخترِق لها والبادي كممر واصل بين دائرة البيوت السبعة والساحة المربعة. بدا التجويف ظليلاً وجيد التهوية بدرجة غير مفهومة.

غلبني النعاس، وفي نومي رأيت نفسي على أعتاب بناء مهيب مشيّد بالكلمات والحروف والعلامات. جدرانه وأحجاره مغطاة بها عن آخرها، حتى ليكاد الناظر إليها يظن أن لا أحجار خلف الحروف والكلمات المحفورة بإتقان مرعب.

كان الرعب، بالفعل، ما شعرت به إزاء هذا النص المستغلق على فهمي. رغماً عني، عبرت العتبة إلى الداخل. تحركت مشدوهاً من جدار إلى آخر متأملاً المتون المسجلة عليها.

راحت بعض العلامات تغادر حوائطها وأعمدتها وتتجسد أمام ناظري على هيئة طيور أو أشجار أو

حيوانات أو بشر. خمنت أن كل تجسد يشير إلى معنى الكلمة التي كانها. حفظت رسمة بعضها. قلت لنفسي: هذه قطة، وهذا طائر أبي منجل، وهذا صقر، وهذه امرأة. لم تكن امرأة تماماً، إذ لم تتطابق مع فكرتي عن النساء، لكنني عرفت على نحو غامض أنها تقترب من كونها امرأة، وإن كانت مكونة من لهب وضياء.

مغنطت هيئتها عينيَ، فلم أستطع إبعادهما عنها. تأملتها ملياً. أبصرت فيها شراً لا يبقي ولا يذر، ورحمةً وحناناً لم أفهم من أين ينبعان بالنظر إلى مظهرها العاصف وغضبها المتأجج.

شيء فيها، ضاعف وعيي بنفسي. كانت ساهية عني. خطوها راقص، ورشاقتها أثيرية. كأن أي هبَّة هواء كفيلة ببعثرتها بحيث لا يتبقى منها ذرة متصلة بأخرى. مع كل حركة تبدر منها، مهما كانت طفيفة، كانت ذاكرتي تُشحذ، وتنبني فيها تفاصيل قد لا تؤدي إلى سردية متصلة ومحكمة لكنها لمح يقود إلى استنارات وإضاءات تجرني بعيداً عن العتمة.

تراءى لي وطن قديم، وعالم خلاء، ومهمة كُلِّفت بها تطلبت مني الارتحال. كان ثمة بحيرة بلون النبيذ، تسبح فيها من تشبه تلك المتراقصة أمامي. كلما هممت بالإمساك بها، تملصت مني لأجد نفسي قابضاً على فراغ.

سائراً على دروب مهجورة، منصتاً لصفير الريح وأصداء صرخات مكتومة تضاعفها الجبال، عرفت أن

حروباً اندلعت وأوبئة أهلكت عشرات الآلاف، وأني وحدي كان عليّ منع كل هذه الفوضى لو نجحت في اقتناص السابحة في البحيرة النبيذية، المخمورة بقدرتها، والتائهة بسطوتها المسببة للهلاك.

غمرني شعور بالذنب. واصلت سعيي خلفها، وأمعنت هي في تحولها ولهوها الخطر غير عابئة بما تقترفه يداها. تمنيت لو تعود لحالتها الأخرى. الحكيمة المفكّرة غير المسكونة بالانتقام، لكنني كنت مدركاً لحقيقة أن هذا لن يحدث دوني. عليّ أن أكون لها كالضباب المغلِّف للماء الأول. ماء البدء والمنتهى. في لحظات صرت سديماً يغبِّش الوجود أمامها. تاهت خطوتها، تعثرت في ذاتها، وتدحرجت من فوق تل لا يراه غيرنا. في تدحرجها اختل توازن العالم في عينيها. رجفة مزلزلة اعترت الأرض، وران صمت ثقيل. غاب الطنين المزعج عن أذنيَ واضمحلت الأصداء.

أملت أن تكتشف في تعثرها خلاصاً ما، لنفسها قبل أن يكون لعالم من تخيلاتها وأحلامها أشاركها فيه.

أفقت من نومي للحظات، ولمَّا عاودت النعاس لم يكن هناك أثر للبناء المهيب ولا لجدارياته المكتظة. وجدت نفسي أدور في حلقات مفرغة داخل مدينة متأرجحة رحت أخطو في شوارعها كذئب منفرد. يجاورني آخرون يخطون مثلي كأن العالم يخلو من سواهم.

لم أحاول محادثة أي منهم. في قرارة نفسي كنت

مدركاً لعبثية هذا الفعل واستحالته. لم يكن ثمة لغة مشتركة. فكرت في مفردة اللغة كما وردت على ذهني لحظتذاك، فخطر لي أنها مرادف للقطيعة وانعدام التواصل. بدت لي الكلمات هاوية تفصل كل فرد عن الآخرين.

شعرت بأن مخيلتي مقيدة وذاكرتي لا وجود لها، لكن هذا لم يمثّل مشكلة لي. على العكس، لسبب مبهم استحوذ عليّ شعور مفاده أن التوهان عن هويتي وماضيَ شرط لتجاوز مرحلتي الحالية.

لا يعني هذا أن مفهوم الهوية لم يكن له وجود في حلمي هذا، على العكس، كان لامعاً ونابضاً بداخلي، لكن هويتي كانت حبلى بهويات أخرى عديدة. شعرت بازدحام داخلي، وبشخصيات لا نهائية تتصارع في أعماقي. ضج جسدي بجماع من أفكار ومشاهد وشخصيات تحتلني. يبحث كل منها عن ثغرة للإعلان عن وجوده ومنفذ كي يتجسد من خلاله.

ربة الطلاسم

شجرتي الجميزة، وحيواني مزيج من النمر والقط البري. يعكس النمر وجهي الشرس، والقط وجهي الرشيق المراوغ. التركوازي لوني المقدس حتى لو رسموني بالأحمر النبيذي، لون غضبي ونقمتي.

لا يهم إن أطلقوا عليّ الربّة الحمراء وربطوني بالنار واللهب والحرائق. بشكل ما ليسوا مخطئين. فليكن التركوازي سري وتميمتي، وليكن الأحمر قناعي ودرعي. لكل ظاهر باطن، وأنا سيدة الغموض والطلاسم والأحجيات. الربة المنتقمة، ناشرة الطاعون والهلاك والأوبئة، لكنني أيضاً ربة الحكمة والمعرفة، أو على الأقل كنت كذلك قبل انشقاقي.

لي نص مقدس يحكي عن ربَّة آبقة خطَّاءة. النص الحقيقي ليس المكتوب على هيئة طلاسم وعلامات مشفرة على صخور معبدي، إنما ذلك المتروك في العراء لكل عين فضولية متطفلة.

نص من الجبال والغابات والمياه والنباتات، يسرد قصتي. أنا المنفية عن موطن عبادتي القديم، فاخترعت مكاناً أقرب ما يمكن إليه. حيث الحياة على ضفة فيما أنا على الأخرى متوارية في جسد الجبل. كفرت بالبشر فاستبدلت بهم وحوشاً وحيوانات ونباتات محفورة في الصخر مع كتابات تشبه غابة تحتاج إلى دليل للسير في دروبها.

وقعت في هوى ما كتبت، ومن كثرة تحديقي فيه ولمسي لنقوشه المحفورة بعمق، كلّت عيناي وتهلهلت ذاكرتي. بثُ في حاجة دائمة لهذه الذاكرة البديلة الأشبه بندوب في بدن الجبل. عزيت نفسي بأن مصيري الحالي خير دليل على صحة موقفي الأول. لو كنت قد التزمت برفضي لما انتهيت بذاكرة عرجاء، أشحذ قواي لترميمها مؤقتاً، ثم سرعان ما تهترئ من جديد.

«لو لم أخن نفسي، لما خانني كل شيء آخر».

هكذا كنت أردد في سري، لكن أنَّى لي تذوق لذة الخطأ لو لم أفعل؟!

وفق ناموس نفيي عن موطني القديم، لا يحق لي مساعدة أحد في العبور إليّ. قدري أن أقضي أيامي وحيدة بين الأحجار منتظرة يوم يتمكن فيه عابر للنهر من قراءة جدارياتي كي تستقيم حياتي وينتهي منفاي. أنا الربة المفترض بها أن تكون منقذة كنت في حاجة إلى إنقاذ من فانٍ يمكنه بمصادفة عمياء النجاح في مهمة في مقدورها تعجيز كل من لا ينتبه إلى أن الربة المتقلبة في حاجة إليه أكثر مما هو في حاجة إليها.

كنت أيضاً أنتظر من أعرف أنه – لا ريب – آتٍ مهما أوغلت في خداعه ومراوغته. بطريقة ما سوف يفيق على حقيقته، وينفض عنه كل ما أضفيته عليه من أقنعة وحجب.

على ضفتي هذه ليس ثمة حياة، فقط صمت وهسيس نار تمثلني حين أغضب وأمزق وجهي الحنون

لأكشف عن وجهي الهادر المزمجر. وما بين تقلبات لا تنتهي، أعجز أنا نفسي عن تحديد أي الربتين أكون. ربة المعرفة والحكمة التركوازية؟ أم ربة الحرب والدمار الحمراء؟

أحدِّق صوب البر الآخر حيث بساتين موز ونخيل وأعناب وجميزة عملاقة تذكرني بماضٍ كانت لي فيه الكلمة العليا. يزداد انتباهي كلما لاحظت أن الجميزة قد حملت قمتها «رائياً» جديداً دفعه الفضول لتسجيل تفاصيل معبدي في ذاكرته. ساعتها أركز قواي على التلاعب بعقله بحيث تتلاشى منه كل ذكرى عن معبد هو أنا.

القادر على قراءة متوني مستقبلاً سوف يحدس من تلقاء ذاته بأن عليه ألّا يعتلي الجميزة، فالتلصص لا يليق بالمنذورين لأمر جلل، لذا لا أتردد لحظة في التلاعب بعقول مسترقي النظر ممن يُطلَق عليهم زوراً لقب الرائين. لا أحد منهم محرري المحتمل.

لم يرَ أي من سكان الضفة النباتية المعبد قط ومع هذا كانوا موقنين من وجوده. ورثوا عن آبائهم حكايات عديدة عنه، وطاردتهم أفكار وخيالات تخصه، رأوا أنني، لا بدّ، من بثّها في أذهانهم.

بالنسبة إليهم أنا ربة مهجورة ومنسية وُزِّعَت أدوارها على ربات أخريات عقاباً لها لأنها تجرأت وقرأت كتابَ تحوت الحاوي لكل أسرار الكون.

اعتبروني سيدة بيت الكتب، راعية مكتبة الآلهة

والمكتبات الأرضية وسيدة بيت العمارة!

رأيت نفسي في عيونهم، أبصرتني في مراياهم. انبعثت قوتي وقدرتي من إيمانهم بماضٍ متوهَّم ربطوه بي. آمنتُ بذاتي تأثراً بإيمانهم هم، وتلك كانت خطيئة أخرى تُضاف إلى خطاياي اللانهائية، إذ أضاعتني عن ذاتي، ودفعتني للنكث بعهد قطعته على نفسي ذات ماضٍ كأنه لم يكن. حثني هذا على الارتحال من أجل التجدد والنظر بعينيّ أنا لا بعيون آخرين معرفتهم بي منسوجة من خرافات وأساطير غرضها هدهدة مخاوفهم وبث الطمأنينة في نفوسهم القلقة.

غادرت موقعي هنا لبعض الوقت. كان هذا منذ فترة قريبة نسبياً. ارتحلت مع الريح على طريق مهجور ساعة الظهيرة. على الجانبين امتدت بساتين لا نهائية. أشجار كمثرى تحمل ثماراً أشبه بمصابيح مضيئة معلقة على أغصانها، وأشجار مانجو لا عدد لثمراتها. خوخ وبرقوق ومشمش وتفاح. الحرارة شديدة والطريق ترابي تتلاعب الريح بغباره. لبرهة شعرت بالتحرر من أسر الحجر. عدت أثيرية من جديد. اكتشفت كم اشتقت إلى هذا! عند نقطة ما على الطريق بدت حرارة الجو قادرة على إذابة العالم أمام عينَيّ المتعبتين، وبالفعل شعرت كأنه يتماوج مهتزاً قبل أن يسيل ويتبخر لينبعث عالم جديد مكانه.

لم يعد من وجود للبساتين الممتدة ولا لتراب الطريق. حل محلهما عالم من رموز وعلامات. أبصرت

تحوت وهو يخلق نفسه بقوة اللغة. اجتمعت الشمس مع القمر في صفحة السماء. بدوَا لي كعينيَ حورس اليمنى واليسرى، وكدت أرى وجهه كاملاً بالأعلى. إلى جواره خُيِّل إليّ أني لمحت أطياف حتحور وسيشت وباستيت وإيزيس وسخمت ورع وأتوم تتهادى ببطء كأن الزمن قد انتفى.

عند خط الأفق كان ثمة صقر يحلِّق مرفرفاً بجناحيه فيرتعش كل شيء آخر. كما كان هناك غراب يرتاح فوق صخرة قريبة. أدرت وجهي في كل الاتجاهات، وحيثما نظرت راحت تتراءى لي طيور وحيوانات وكائنات وأشياء مبهمة تعرفت خلف تواترها وتراتبيتها على عقل تحوت رب الكلمة المكتوبة والسحر والحكمة والقمر.

خمنت أن سيد السماء المجلل بالأسرار يوجه إليَّ رسالة ما، يبقى فقط أن أفكَّ شفرتها. ضايقني تعمده ملاعبتي وتحدي قدراتي. بدا كأنما يستعرض مهاراته كساحر أمامي. لا غرابة في أن يقترن السحر بالكتابة. لكن ما شغلني كان تساؤلاً مفاده: لماذا تخلى تحوت عن الكتابة؛ اختراعه ومصدر فخره، ولجأ إلى علامات لا يكاد يربط بينها رابط واضح لي؟

اشتقت فجأة إلى عالم ما قبل اللغة، ما قبل الكتابة، ما قبل المعنى. تقت إلى عالم ما قبل كل شيء، حيث الحقيقة والإشراق والاستبصار، حيث لا أقنعة ولا حُجُب كالكلمات والمعاني والأسماء تخفي الجوهر وتموِّه عليه.

استنتجت أن تحوت يشير إلى صراعنا الأزلي الذي بدأ مع رفضي للكتابة، اختراعه وهديته الجالبة للزيف والتصنع والنسيان. لكن غاب عني مغزى ما يريد إخباري به. أيسخر مني وقد صرت منبوذة لا بديل أمامي سوى توسل هديته لحكي قصتي وإقناع قادم محتمل بصواب حُجتي؟ أم يبلغني لمحاً أنّي كنت محقة في معارضته؟

لم أصل إلى إجابة تريحني، خاصة أن كل ما حولي تبخر بلا مقدمات، ووجدت نفسي مرة أخرى على الطريق الترابي بين بساتين الفاكهة. لم أميز يميني عن يساري ولا أمامي عن خلفي. على غير عادتي، فقدت إحساسي بالاتجاهات وتعطلت بوصلتي الداخلية. لم أشعر، مع هذا، بالضياع. كيف أضيع وأنا بلا وجهة أصلاً؟ من أين يأتيني التيه المرتجى والعالم قوقعتي؟

بعدها امتهنت الارتحال، من وقت لآخر، عن ضفة الحجر. أحببت العيش على الطريق والالتحام به. كانت تلك وسيلتي لدرء الضجر بعيداً عني. على واحد من طرقي ودروبي العديدة المتشعبة كنت ألتقي ذواتي القديمة، وجوهي المنسية المهملة. أومئ لإحداها إيماءة تقدير من مسافة محسوبة، ولا أكاد أتعرف على أخرى، وأتجاهل ثالثة عن عمد، إذ تذكرني بما لا أرغب في استعادته.

عند نقطة ما على الطريق، تتوحد هذه الذوات داخلي. تندمج بي. تصير إياي وتحدد ما أنا عليه. عند

نقطة تالية يتلاشى كل شيء. أصير بلا ذاكرة. أغادر أناي المتحدة، وأراقب أنواتي المفصومة عني. أشعر بألم هذا الانفصام. أراه خصاءً لذاتي، وتقليماً لقوتي. لكن ما إن تشرق شمس ذاكرتي في عقلي من جديد، حتى يصير التعدد قوة مضافة. ألتئم بلا وجع أو ندوب.

وحدها النار تساعدني على التعافي. في مستقري، على ضفة خالية من الحياة، لا يؤنسني سواها. تنعشني طقطقتها. يدفئ هسيسها روحي الثلجية. من وقت لآخر أتقمصها، إذ لا مفر من الاتحاد بقلب اللهب. البحث داخله عن جوهره الخفي. الحكمة موطنها الخفاء. لا توجد إلّا محتجبة مسربلة بالضباب والغيوم والسديم. اللهب المتأجج بيتها ومستقرها. لا معرفة دون اشتعال. لا حكمة دون اكتواء بالنار. هذا درسي ومكمن قوتي.

على عكس ما قد يظنه تحوت وحواريوه، لم ألجأ لهديته إلى العالم اعترافاً بأهميتها وحكمته، بل لأكشف خطأ مذهبه. لأفضح كيف يمكن الاختباء خلف الكلمات، كيف في إمكانها التعمية على الحقيقة والتعتيم على الجوهر.

فاللغة قناع، والكلمات فخاخ، والمسميات خديعة. دخان يعتِّم على الحقيقة ويخفيها. لو كان إدراكي لهذه الخلاصة البدهية خطيئتي، فلأغرق فيها بلا رغبة في الخلاص، وليواصل تحوت ملاحقته لي عبر آخرين هم مجرد أدوات ورسل لنقل رسالته. رسالة وصلتني بالفعل قبل آلاف السنوات، وأعلنت رفضي لها.

وحكمة تحوت والدارس لها، لن يقدر على حل أحجياتي. الغفلة شرط أساسي لمعرفة السر القديم قدم الكون. غفلة العقل ويقظة الوعي والروح. تغييب المنطق المحدود وإطلاق العنان للبصيرة والخيال، للمعرفة الغنوصية بكامل إشراقاتها.

سيجود الحجر بأسراره على الأكثر غفلة عن كل مميزاته الشخصية وسجاياه، على من سيبقى غريباً أينما حل. لا بدّ من الغربة عن العالم. لا بديل عن تعميقها وتعتيقها والوصول بها إلى ذروتها.

وحده الغريب يقدر على الرؤية. وحده ينقشع من أمام عينيه غبش الوهم. وحده من يتبصر. وأنا غريبة منذ الأزل حتى الأبد. في حالة صيرورة دائمة وتعدد لا نهائي. تتناقض صوري وتغترب إحداها عن الأخرى، بحيث أبدو - في النهاية - كمهلوِّسة تنقض ما سبق وغزلته، كملتاثة سحبت العالم معها إلى مستنقعات الجنون.

على الجانب الآخر يوجد تحوت الحكيم منظّم الوقت والمواسم. مخترع الكتابة ورب الكلمة المكتوبة. صاحب الهدية المرفوضة من جانب ملك مصر لأنه رأى فيها مظهر الحقيقة لا الحقيقة ذاتها. الهدية المرفوضة من جانبي أنا أيضاً. من منحني بعضاً من أسراره ومعجزاته، من كنت نداً له بقدراتي ومواهبي، ثم استغللت هذه المواهب والقدرات لمحاربة هديته اقتناعاً مني بأن فساد الكون بأسره كامن فيها.

في هذا الوجود التالي على كل شيء، يستمر الصراع بيني وبينه مع فارق أساسي: ثمة فرصة أمامي للبرهنة على صواب موقفي ودعوتي. ثمة فرصة لاستخدام هديته للعالم ضده.

النص السحري المدون على صخوري ستار خادع هو والهراء المحض سواء، لكن خلف سطوره وكلماته المهلوّسة يختبئ سيل من نقوش وعلامات ورسومات. الحكمة الصافية متوارية خلف طوفان من الحماقة.

قاطنو الواحة ظنوا أن متوني تحتوي على «ألواح الزمرد»، الكتاب المنسوب لتحوت. وأن من يقرؤها ويفك أكوادها سوف يمتلك أسرار التحول التي تمكّن الخيميائيين من تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب.

ماذا أقول لهم؟! لا حجر فلاسفة في الجوار. هؤلاء أخذوا المعنى الحرفي للكلمات، أغراهم الظاهر وألهاهم عن فهم الباطن، وتمثُّل أن التحول يحدث داخل الوعي قبل أن يتمظهر في العالم الخارجي.

خلق تحوت نفسه من الكلمات، لكن أنّى لهؤلاء أن يبلغوا حقيقة ساطعة وزئبقية في آن، أنّى لهم إدراك السحر الناجم عن تحويل إنسان ذي وعي زائف إلى كائن متنور ذي وعي خالق؟ ليس من السهل حدوث هذا خاصة في ظل وجود الكلمات. فتلك القادرة على أن تكون أداة سحر وخلق في يد تحوت، في مستطاعها أيضاً أن تكون أداة تزييف وتشويش في يد غيره.

العارف بالأساطير المنسوجة عن ألواح الزمرد

قلت الغفلة شرط، ولم أفصِّل قصدي، بل ألبسته مسوح الغموض. من سيقدر على إنطاق الحجر وفهم ما في أحشائه، يجب أن يكون غافلاً عن أن الحكمة المقدسة ليست غاية أو هدفاً في حد ذاتها، بل وسيلة لإبداع كون جديد غير مشوب بالأخطاء الجذرية. لا خير في الحكمة إن لم ينتج عنها دورات متعاقبة من الخلق وإعادة الخلق حتى الكلل، لا أمل فيها إن لم تكن بلا حاجة إلى لغة أو كلمات ومسميات لشرحها والتدليل عليها. في الصمت والسكون تولد الحكمة وتزدهر.

أفنيت نفسي بإرادتي، وداومت على خلقها كل مرة في صورة مختلفة، وارتضيت الاختباء خلف قناعي الحجري، ووضع ذاتي تحت رحمة أن يأتي من أجده مناسباً كي أشرق عليه بنعمة معارفي. عبر الضعف نقدِّر القوة، وأنا اخترت ضعفي وعزلتي ومنفاي. لم يفرض عليَ أحد عقوبة ما، ولم يسع تحوت إلى الانتقام مني، فأنا المنتقمة لا هو.

أنا من انتقيت عقوبتي واخترت منفاي. ابتكرت سلسلة أنواتي بحدب وعناية، ليس فقط لأن التعدد واللاثبات هما ما أبتغيه وأبشِّر به، بل بالأساس لأن التحول اللانهائي كان أمراً لا مفر منه لمراوغة تحوت وباقي أرباب موطن عبادتي، ممن ظلوا يبحثون عني محاولين إغرائي بالعودة إلى حضنهم من جديد.

انتقلوا في أعقابي من أدنى الكون إلى أقصاه، من أعالي السماء حتى أغوار الأرض. حدثوني وتحايلوا

لإقناعي بأهمية الإياب. كدت أضعف حين أبلغوني بجفاف النهر الأول حيث يقبع معبدي الأصلي، لكني لم أفعل لإيماني بأن دموع أتوم قادرة على ملئه من جديد. في إمكانه إن أراد أن يجعل النهر في حالة فيضان دائم. أنا الربة الآبقة الخطّاءة، روح أتوم لا تزال تحيط بي على الرغم من كل شيء.

ما لن يعرفه أحد الفانين أنّي، على عكس الشائع، لم أطّلع على السر المقدس، بل لم أسعَ إلى ذلك من الأصل، كيف أفعل مع علمي أنه ليس سراً من الأساس، فهو مكنون في داخلي وفي أصغر ذرة غبار حولي. كما أنه في غير حاجة إلى التدوين، فالعين العارفة والروح الرائية قادرتان على استبصاره مهما خفي وتوارى. إن كنت قد عاقبت نفسي فلأنني لبرهة من الزمن تغافلت عن هذه الحقيقة الساطعة.

وحده الرائي الحقيقي سيساعدني وأساعده. سوف أكشف له - حين أطمئن إلى أنه الشخص المُنتَظَر - عن ما دونته على صخور الجبل، فيما هو بإشراقة قد لا يفهم أبعادها سيبوح لي - دون وعي منه - بالتفاصيل الغائبة عن ذاكرتي. كان التدوين طقساً لن تُمحَى آلامه من داخلي مهما تعددت هيئاتي وخربت ذاكرتي.

صيَّرت نفسي بشراً من لحم ودم، وأعملت خنجراً ملتهباً في جسدي أخط به وأحفر كل ما أختزنه من معارف وإشراقات. راح الدم يسيل والكلمات تُوشم وتنحفر في لحمي فلم تحتمل أذناي صراخي. أصابني

الصمم وكفَّت عيناي عن الرؤية. دخلت مملكة الصمت والعتمة. حين أفقت، واستطعت – رغماً عن جروحي وأوجاعي - استرداد هيئتي كربَة معبودة، اكتشفت أنّي صرت صمّاء بكماء عمياء. غصت في عتمتي وصمتي وخرس الكون من حولي. في براح اللاشيء اكتشفت الوجود. لمسته واكتويت بناره وجمدتني ثلوجه. ترديت في هاوية نفسي، واستعذبت هذا التردي حتى مللته في النهاية ونفضته عني، وقررت خلق نفسي من جديد على خطى تحوت وباستخدام هديته للعالم، هِبته المرفوضة من تاموس ملك مصر ومني قبله: الكتابة.

والآن، لا يشغلني أحد قدر انشغالي بورثة تحوت والسائرين على دربه من الكُتّاب. وحدهم من يقلقون راحتي في مثواي الحجري هذا، من يخلقون أنفسهم بقوة اللغة، من يخترعون العوالم والذوات بالكلمات. فيسلمونني إلى الشك والأرق. يجعلونني أتساءل: أكنت محقة في رفضي اختراعه مع وجود هؤلاء الذين وصلوا به إلى ما لم أحلم به أو أتخيل وجوده؟

لكنهم أيضاً من يدفعونني للتأكد من عدالة قضيتي. أطفال تحوت المطرودون من جنتي والهائمون على وجوههم دون معرفة لماذا هم دوماً مليئون بالشكوك والهواجس والظنون، أو ما الذي ينقصهم ويمنع تجسيد ما يخترعونه ويختلقونه على أرض الواقع، أو لماذا سيظل فعلهم أسيراً في «ليمبو» المجاز غير قابل للتحقق على الأرض بحيث يراه من لا يبصرون سوى

الملموس والمرئي والمجسّد.

سواء حدس أبناء تحوت هؤلاء بدوري في ما وجدوا أنفسهم فيه داخل مأواهم المتأرجح أم لا، سوف يأتون إليّ في مرحلة أو أخرى من مراحل تيههم، بعد أن غادر كل منهم الحياة كما عرفها، أو ظن أنه يعرفها.

سوف يسمعون همسي، وينساقون خلف أغنيتي المدوِّخة حتى يصلوا إلى صخرة المصير. حجر آخر من عالمي الحجري عن آخره. حين ينزلقون في هاوية العدم والفراغ حيث لا زمان ولا مكان ولا أشكال محددة، سيحدسون بي، ويرونني أنقسم وأتعدد بينما تتلاشى أشكالهم وتفيض على الفراغ المحيط لتكون جزءاً منه.

بصبر صيّاد انتظرت على الضفة الأخرى للهاوية، متخيلة رحلة كل منهم إلى أن يجد نفسه – مثل رفاقه الغافل عنهم - محبوساً داخل واحة التيه. يحلم بعبور النهر والالتحام بجسد الجبل دون معرفة سر إغوائه.

كنت أوقن بدوري أن بين أطفال تحوت من سيقدر على فك شفرة طلاسمي وقراءة المخبوء من نقوش. من سيصل إلى الكلمة في معناها المطلق. آمنت بهذا، وانتظرته. قضيت زمني الفضفاض غير المحدد متشاغلة بما سبق وعرفت، متذكرة رحلات جنوني وشططي، يقتلني الحنين إلى ما قبل الزمن، ما قبل تكوّن الأشكال الثابتة، ما قبل المكان. حيث سباحة لا نهائية في الفراغ وبين الحُجُب. حجب لا آخر لها، ما إن ينزاح أحدها

حتى يُولَد غيره.

في ذلك العالم اللازماني واللامكاني. عالم ما قبل المادة والزمن والشكل، كنت ربّة مهابة. ندّ تحوت ومنافسته.

لكن على ضفتي هذه آرقني الزمن، وقتلني الانتظار. ليس من شيم الربات أن ينتظرن، إلّا أنني ربّة آبقة مطرودة من السماء. ربّة ديانة مهجورة. بعيدة عن موطن عبادتي القديم، ومهما حاولت استنساخه سيظل هناك شيء ناقص. سأظل في المكان الخطأ والزمان غير الملائم.

قضيت وقتي هنا أنتظر ناجياً سيأتي من مأوى متأرجح في الهواء، وعبر صخرة المصير وهاوية الفراغ والعدم، سيصل إلى الواحة دون أن يعرف كيف وصل ولا كيف يمكنه الخروج. سيوقن فقط أن عليه العبور إلى الضفة الحجرية، فبين النباتات لا مكان له. لن ينشغل بتسلق الجميزة المقدسة، بل بكيفية رمي نفسه في النهر المتقلب حتى يبلغ الجهة الأخرى منه. وإذا حدث وبلغها قد يتوه أياماً أو شهوراً أو حتى سنوات وهو يدقق في الكلمات والنقوش والرسومات المحفورة والمنحوتة والمنقوشة على صخوري. كنت مؤمنة دوماً بأنه في النهاية سيرى. ستحرقه الكلمة المخبأة بنيرانها ونورها، لكن قبل الاحتراق سيتمكن من ترجمة ما سبق ورسمته وحفرته من أشكال وعلامات. وعبر هذا قد يتمكن من حكي قصة جزيرة متأرجحة في الهواء

ومعرضة للهلاك في أي لحظة، وربة مهلوسة تحرس أطلالاً على ضفة نهر متقلب يشبه البحر في شططه وعنفوانه. يشبه الربّة الآبقة في هوائيتها وأمزجتها المتناقضة.

لا فريسة ولا صيَّاد

الآن فقط صرت أعرف! عدت مطلعاً على معارف عهدي الأول.

لكن ما بين البداية، بحكمتها الصافية، وحاضري المغلَّف بالإدراك والوعي، ثمة مراحل من النسيان والجهل، انفتحت مغاليقها أمامي وتسربت تفاصيلها الدقيقة داخل ثنايا عقلي.

في مرحلة الوعي الحالية، أستعيد أزمان الغفلة، وأندهش كيف كنت أعمى عن حقيقتي وهويتي إلى هذا الحد. كانت كل قطع اللغز مفرودة أمامي وفي متناولي. لا قطعة واحدة مفقودة، ومع هذا فاتتني الخلاصة البدهية الكفيلة بأن تقودني إلى سري الغائب عني، كي أخرج من عتمتي، وأدرك أنني لست كالآخرين، حتى وإن تشابهت معهم. لم أكن أنتمي إلى مَن عشت بينهم متنكراً بحيث تهث - أنا نفسي - عن ذاتي القديمة وكينونتي المطلقة.

كان هناك دوماً شيء مفارق للواقع في كل ما يحيط بي. مسافة تفصلني عن العالم. كنت أنظر حولي فأرى الخراب الكامن في البنيان، والسوس الناخر في الأجساد، والضغائن المثقلة على القلوب.

يُهيًا لي أن كل ما مضى هنيهة عابرة. الأماكن كلها مكان واحد مهما تباعدت، ومع هذا انحفر بعضها في داخلي أكثر من غيره، ربما لأنه قرَّبني من حقيقتي

التائهة مني. أتذكر طرقات مرصوفة بأحجار ترن الخطوات عليها بلا انقطاع، وجداول محاطة بمساحات خضراء، وضباباً مخيّماً بحيث يمنح الضوء طابعاً شبحياً لا تنجح الشمس - حين تسطع - في محو ذكراه، وميناءً لطالما قضيت الساعات جالساً على رصيفه أراقب السفن وأتأمل أفقاً كنت أحدس بأنه يخبئ عني ما في إمكانه زلزلة كوني بأسره.

كنت أسير في الشوارع، فأشعر بأن البنايات طافية في الهواء لا راسخة فوق الأرض. أدقق فيها فيُخيَّل إليّ أنها أوهام بصرية أو مجرد انعكاس لبنايات حقيقية قابعة في عالم آخر. سكنتني فكرة أن عالمي بكامله صورة منعكسة على الماء ترنو لأصلٍ تعجز عن رؤيته، فيما الأصل يراقبها مستمتعاً باهتزازها، ومنتظراً أن يلقي طفل عابث بحجر يلاشيها.

لنفض هذه الفكرة عني اعتدت التحديق في الجداول بحثاً عن أناي الناظرة لي من مياهها. كانت تلك محاولات يائسة لطمأنة نفسي بأنني حقيقي ولست انعكاساً.

«إذا أبصرت وجهي يرمقني من موقعه في الأسفل سوف ألقمه حجراً، وحين تختفي صورتي خلف دوامات المياه المتحركة، سوف أتأكد من أنني الأصل».

هذا ما كنت أهدهد مخاوفي بقوله، غير أنني كنت أجبن في اللحظات الأخيرة. وأكتفي بالتدقيق في صورتي المائية المهتزة فأجدها لا تشبهني. بطريقة

مبهمة كنت واثقاً من أن هذا الانعكاس ليس لي، بل لكائن آخر، ربما يكون هو نفسه الكائن الذي تنتمي إليه أحلامي. كان حلماً واحداً يتكرر كل مرة بثوب مختلف قليلاً كأنما يرغب في خداعي وإقناعي بتعدد مفقود.

كنت أحلم ببحر يتوسط محيطاً شاسعاً. كان في إمكاني تمييز الحدود الفاصلة بينهما. فعلى عكس المحيط الهائج دوماً ذي الأمواج بحجم جبال متحركة، كان البحر هادئاً لا يكاد ماؤه يهتز، تنكسر أمواج المحيط على حاجز غير مرئي وترتد نحو الخلف وقد تناثر ماؤها بعيداً عن بحر تطفو فوقه سراخس وأعشاب داكنة الخضرة، ويغص بسفن تتهادى إحداها إثر الأخرى مكوِّنة مجموعة دوائر متداخلة، تحلق فوقها طيور بيضاء.

كان قلبي ينقبض بينما أراقبها دون أن يظهر لي موطئ قدم في عالمها الصامت. أبدو لنفسي كأثير يتجسس على كون غافل عنه. أنتبه في لحظة ما إلى أنني استوليت على حلم شخص آخر، يعني له بحر السراخس هذا شيئاً، فلا يكتفي مثلي بمراقبته من بعيد غير مدرك لمغزاه ولا الكامن وراءه.

وما إن أرتاح لهذه الفكرة حتى أرى بعينَي خيالي أو ربما ذاكرتي عشرات السفن الغارقة والمقبورة في أعماق البحر. يغمرني يقين بأن لي يداً في غرق هذه السفن وهلاك بحارتها.

يظل هذا الشعور معي حين أصحو. يرافقني دوماً

إحساس بالذنب كأنني مسؤول عن فساد الوجود بأسره.

لم أتخلص من هذا الإحساس حتى خلال فترة بقائي اللاحق في مدينة امتصت مخيلتي وتلاعبت بذاكرتي، وأمدتني بمعارف زائفة كان هدفها التشويش على معارفي الأولى وإسدال قناع على هويتي وجوهري. في ذاكرتي كان يتردد اسم «ربة الطلاسم»، وأحدس بالكثير عنها، ومع هذا احتجب عني ما تعنيه لي وما عليّ فعله بخصوصها.

فيما بعد، كانت الأشياء تختلط عليّ. تتداخل الأوهام مع ما كنت أظنه حقائق، وتتجاور شذرات من حيوات مختلفة دون تناغم بينها. في أفكاري وتخيلاتي، كنت دائماً على طريق ما، فيما تتلاحق على ذهني مشاهد لا أدري أعشتها فعلاً أم اختلقتها أم عاشها سواي وتسربت إليّ بشكل ما. كنت أراني امرأةً فوق قمة جبل حيث قلعة وحقل صبار وعالم متلاشٍ بالأسفل، أو رجلاً تائهاً داخل غابة رطبة، أو مبحراً في سفينة تتقاذفها أمواج بحر صاخب. كانت التفاصيل تتناقض بقسوة تاركةً في داخلي حيرة وعدم فهم. كان بعضها يدحض وجودي ذاته ويشككني فيه، غير أن «ربة الطلاسم» كانت حاضرة دوماً. تصاحبني فكرتها حتى لو تهت عن حقيقتها. آمنت لفترات طويلة بأنني بمشاهدي المستعادة وشذرات ماضيّ وأحداث حاضري نتاج هلاوسها وتخيلاتها، لكن نوبات شك كانت تتملكني هامسةً لي بأن العكس هو الصحيح، وبأنها مجرد فكرة

مستحوذة عليّ بلا وجود خارج رأسي.

«انظر حولك. تمعن في العالم خارج حدود جسدك. لا أثر لها. أنت من اخترعها، من منحها القدرة على استلابه».

بهذه الكلمات وما يشبهها كان وسواسي يوسوس لي. اعتدت تجاهله حيناً والإنصات له أحياناً، غير أنني لم أكف قط عن السير خلف ظلال تلك الربّة الغامضة. ربما لأنها - حتى إن كانت فكرة اجترحتها مخيلتي – تظل أجمل من كل ما عداها. لم أصادف حقيقة مجسدة قادرة على منافستها. هذا ما كنت أعتقده خلال مراحل غفلتي، وقت كنت أظن أنني مرتحل لا يملك من أمره شيئاً، في حين أن هذا أبعد الأشياء عن الحقيقة. بدأت ترحالي بمحض إرادتي. كان مهمة لا تنصل منها. أو للدقة كان مهمة سعيت لإنجازها.

الآن فقط صرت أعرف أنني كنت أقتفي أثر ربّة الطلاسم منذ القدم. وما أصعب ملاحقة من ارتقى بمحو الأثر إلى مصاف الفن. كنت أبحث عن نفسي في الأثناء، لكن تلك قصة أخرى.

أكنت المُطارِد أم المُطارَد؟!

لم تكن هاربة مسكينة خائفة من مطارِدها. بشكل ما، تلاعبت بي. محت ذاكرتي حين أرادت وسربت لي – عندما رغبت - شذرات من ذكرياتي، محرَّفة حيناً وصحيحة آخر.

أنستني كل شيء تقريباً إلّا حتمية الاستمرار في

رحلتي. حتمية اتباع السراب المترائي لي.

صرت أعرف بعد انتهاء كل شيء. كنت بيدقاً في لعبة لم أدرك أبعادها، طُعماً بين ربَّة الطلاسم وخصمها اللامتناهي. أعترف أنني ما زلت لا أفهم تماماً أكنتُ أداة في يدها أم يده؟ أم أنهما وإياي صور ثلاث لجوهر واحد؟ روح واحدة تبحث عن اكتمالها. هذا ما أرجح أنها تؤمن به، وما علّمني ترحالي إياه.

كانت تهمس في أذني بأنني إياها. خفيَّة. غائبة. منتشرة كبخار في الهواء، ومع هذا كنت أشعر بها كما لو كانت متجسدة أمامي، بذاتها القديمة قبل خطيئتها المدوية، وإصرارها على المضي قدماً دون ذرة من ندم.

باتحادي معها، يستحوذ عليّ إحساس أنها خطيئتي أنا بالأساس، كأنني من حث عليها وخطط لها. كانت ضرورة حتمية، لا مفر منها. لم يكن هناك بدّ من تبعثر كل شيء وغرقه في فوضاه، لن أقول كي يستقيم العالم، لكن كي نتعرف على ذواتنا.

كنا في حاجة إلى التيه كي نعرف، والآن وقد فعلنا، لن يفيد الانتقال من مكان لآخر، فكل الأماكن سواء. كان هو يعرف منذ البداية، وكذلك هي، وربما كنت لأفعل أيضاً لو لم يُتلاعَب بذاكرتي ويُقيَّد خيالي.

أدرك أنها لا تزال تنتظر، وأن مجيئي واتحادي بها لم يشفِ غليلها، ولم يصل بها إلى كمالٍ تبتغيه. بعقلها السابح في فضاءات أخرى، وجسدها المغمور بطلاسمها وكتابات دوَّنها عليه عابرو سبيل مغامرون ورحالة

مستكشفون لا تزال تنتظره هو موقنة من أنه سوف يأتي مع الريح خارجاً من قلب النار المقدسة. على الأرجح سوف يتخذ مساراً يخصه وحده. لن تتمكن من تحجيم خياله، أو خداعه بجنية السراب الماكرة، ولا ببحيرة زئبق تُذهِب العقل وتسمم البدن.

تؤمن بأنها سوف تتعرف عليه ما إن يلوح في الأفق، ومعه سوف تبدأ الشوط من أوله بلا أخطاء. ما لا تدركه أن بحوزتي سراً لم يطّلع عليه سواي. أنا نفسي كنت غافلاً عنه على درب ارتحالي: هذا الكون محكوم بالخطأ ولا سبيل إلى إصلاحه مهما تعددت البدايات، ومهما وحدنا قوانا وذواتنا.

لن يعود بإمكانها التلاعب بذاكرتي ومحو كل ما يدل على هويتي. وإن فعلت سوف تتذوق الكأس نفسها. سوف تثمل أكثر بخمر الجنون والحماقة ولن تفيق من هلاوسها أبداً.

أما أنا فسوف أظل في قاع نهر هو مستقري المُختار وموطن روحي المنتقى بعناية. في هذه الأعماق التقيت حقيقتي. أتذكر أنني أفقت من نوم عميق لأجد نفسي ممدداً في ظل تجويف حجري. كنت محاطاً بمدرجات وواجهات قلاع منحوتة في الصخر وعلى مقربة مني ساحات مربعة. لم أنشغل بتفحص الجداريات المحفورة فوق الصخور. تمثّل هاجسي الأوحد في الهبوط إلى سفح الجبل، وما إن فعلت، حتى واصلت سيري لأصل في النهاية إلى شاطئ نهر عرفت أنه ينتظرني منذ

الأزل. دون تفكير قفزت في المياه. بيتي الأول، حيث بدأث الحياة وحيث ستنتهي. فكل شيء انبعث من مياه يغمرها الضباب حتى ليكاد يخفيها، ونهر يختبئ خلف نباتات الغاب والحلفا والبردي، وفراغ هو الكون بأسره.

من خشب وهلاوس

كنت أقطع الأخشاب في الحرش المجاور لكوخي، حين داهمني ذلك الشعور لأول مرة، أو بالأحرى حين وضعت إصبعي عليه ورأيته رأي العين، فهو مُعتَّق بداخلي منذ القدم، لكنه تجسَّد لي فقط في تلك اللحظة وأنا محاط بالجذوع والأغصان المقطوعة والأوراق المتساقطة.

شعرت أنني مخلوق من الخشب. تسكنني رائحته. تغمرني وتستحوذ على روحي. تفتنني طزاجتها. أحاط بها فأشعر أنّي في بيتي، في موطن أول غابت عني ذكراه، وقبعت روائحه وأصواته في أعماقي.

وجدت في هذا تفسيراً لأفعالي منذ انتقلت من بيتي القديم إلى هذه البقعة النائية، إذ صار قطع الأخشاب عادة يومية. شعيرة لم يفلح شيء في شغلي عنها. بتُّ أقضي معظم وقتي في صنفرة الخشب المجفف وتصميمه على هيئة قطع أثاث وأدوات لا حاجة لي بها. أفضل أوقاتي تكون ويداي على اتصال بالمادة الخام، تمنحانها شكلاً لم تكن لتحظى به من دوني. يسرق هذا الفعل انتباهي ولا يدع لي وقتاً للتفكير في الواقع المحيط بي، حيث لم يعد هناك سوى خواء وفراغ وصمت يتخلله - من وقت إلى آخر - عواء أو نباح أو ضجة يصعب التأكد من كنهها.

عندما أنتهي، أتجول في المدينة. أمر على البيوت

المهجورة للتأكد من أنها على ما يرام. معظمها هجرها أصحابها على عجل دون حتى إغلاق الأبواب. أتفحص تفاصيل كل بيت مغالباً حساسية صدري من الغبار المتراكم. أفتح النوافذ للتهوية، ثم أغلقها قبل المغادرة. أتأمل فوضى حدائق منزلية في طريقها للتحول إلى أدغال مصغرة، ولا أحاول التدخل للحد منها. معركتي ضد الطبيعة محكومة بالخسارة، لذا أتركها (الطبيعة لا المعركة) تأخذ مجراها. أرعى تغولها وأتجسس عليه من بعيد. لست في مزاج للنضال حتى من أجل الحفاظ على الحيز الذي يشغله جسدي. في مرحلتي الحالية أشعر أنني أوجد فقط دون أن أعيش. أتنفس وآكل وأنام وأصحو كيفما أتفق. وبخلاف جولاتي من أدنى المدينة إلى أقصاها وانهماكي في النجارة لا أفعل شيئاً يعتد به.

لولا الأشجار المثمرة وعيش الغراب النامي بكثافة في الغابة لهلكت أنا ورفيقاي. وحدي أدرك هذا، أما هما فكل منهما يهيم في عالم يخصه وحده. لا يكادان ينتبهان حين أترك لكل منهما الطعام بجواره. لا أعرف إن كانا يأكلانه فعلاً أم لا. أستنتج أنهما يفعلان لسببين، الأول بقاؤهما على قيد الحياة، والثاني أني لا أجد له أثراً لمّا أعود في اليوم التالي. لو نقرته الطيور لتبعثر بعض الفتات هنا وهناك.

لا أتوقف طويلاً لتدبر الأمر، بلا تفكير أواصل توفير الطعام والماء لهما، آملاً أن يفيقا يوماً إلى ما كانا عليه

في الماضي، وإن كنت أخشى هذه الإفاقة، إذ لن يكون في مقدوري أن أفسر لهما كيف استحال العالم خراباً على هذا النحو.

أفكر في أن خياراتي الماضية هي ما أوصلني إلى ما أنا عليه: هائم يذرع الشوارع، يغالب ذكريات حاضرة بقوة كأنها لا تزال أحداثاً معاشة، ويشتاق لأخرى اندثرت مخلفة وراءها شعوراً غامراً بالخسران.

حرقت جسوري كلها، وصممت على عدم مبارحة مكاني هذا أو إحداث أي تغيير فيه. من الجيد الاكتفاء بدور المتفرج الصامت لبعض الوقت. من المثير التقاعد والتصرف كريشة في مهب الريح تاركاً العالم لفوضى لا معنى له دونها.

لم أكن لأسمح لنفسي بالتخلي عن رفيقَيّ، غير أنني أعرف – في أعمق أعماقي – أن الأمر أبعد من هذا. كنت سأبقى أيضاً حتى ولو لم يتبق سواي. يضمر قلبي الركام بداخله وتُخبِّئ روحي الخراب في ثناياها، لذا سأرى الدمار منعكساً أمامي أينما حللت.

أتسكع في شوارع ملتوية، وأتأمل أفقاً لا يبوح بشيء وسماءً غائمة على الدوام. لم يعد الدوار يضايقني. تأقلمت معه. كنت أندهش حين يصادفني من ظلوا هنا بعيون زائغة وروح دائخة وجسد لا يقوى على احتمال التأرجح. توقعت رحيلهم مع الوقت، وهو ما حدث فعلاً. اختفوا واحداً وراء الآخر. خلا المكان إلّا من ثلاثتنا.

أخطو من بقعة لأخرى دون حاجة إلى التركيز أو حتى إلى النظر كي أتمكن من الرؤية، فالمدينة موشومة في قلبي، محفورة في تجاويف ذهني وفوق عظامي بشوارعها المتداخلة وميادينها الواهية كبيوت العنكبوت، وبالغابات المحيطة بها كسوار يقيِّد معصماً. أحرص دوماً على تجنب المرور ببيتي القديم. لم أعد قادراً على رؤية آثار الرصاص على جدرانه، ولا على النظر للفجوة التي خلفتها قذيفة في البناية المواجهة له. منذ هجرته، لم أقترب منه. لم أفكر حتى في أخذ متعلقاتي معي إلى كوخ قطعت أخشابه بمزاج وبنيته كمن يغزل ثوباً بخيوط المحبة.

في كوخي، أستهلك أيامي بهدوء لا يعكر صفوه سوى وعيي بأن هناك من ينتظرني ويعوِّل عليّ حتى ولو في هلاوسه. سئمت من هذا، وأحن لحياة بلا مسؤوليات أو متطلبات. يوترني مجرد التفكير في وجود آخرين خارج حدود جسدي. يكفيني من يسكنونني ويتعاركون في داخلي. أتظاهر أحياناً بأن هذه المدينة لي وحدي. لا أحد فيها، ولم يسكنها أو يقطع طرقاتها يوماً سواي. أنجح مرة في إقناع نفسي بهذا، وتكذبني عيناي وذكرياتي مرات.

أصل إلى أطرافها الشمالية، حيث حقول صبار تحوي صبارات من كل شكل ولون. أراه ممدداً هناك، بين النبتات بيضاوية الشكل، لا يكاد يقوى على رفع رأسه، فأعرف أنه نجح كالعادة في تخدير عقله وأحاسيسه. لا

أحاول الاقتراب منه، أتركه لخيالاته ومناماته. لست مستعداً لدفع ثمن إيقاظه وتنبيهه. لا مزاج لي لتحمل سيول من شكوى ونحيب وأسى موجهة للفراغ. شئث أم أبيت، لم أعد بالنسبة إليه سوى فراغ. تصلني من ناحيته جمل غير مترابطة عن نهر يرقد هو في أعماقه، وعن بحيرة من زئبق وواحة تصعب مغادرتها. أنفض كلماته بعيداً عني، ومع هذا تظل فكرة النهر والبحيرة والواحة مصطخبة في خيالي.

أغادره متوجهاً صوب الجهة الأخرى من المدينة. على أطرافها القصية أيضاً، حيث العزلة وجبل يحجز امتداد الغابات خلفه. حين أقترب أراها متربعة هناك بين الصخور كأنها جزء منها. أتأمل بشرتها فأجد الشمس قد لوحتها وجففتها بحيث صارت مقاربة للون الأحجار المجاورة بالفعل. تنظر إليّ فلا تعرفني. تشيح بوجهها بعيداً. أسمعها تترنم بأناشيد خافتة لا أفهم منها شيئاً، غير أن إيقاعها يصيبني برجفة. نظرتها الأسيانة وصوتها المتألم يخبرانني بأنها تغني للانتظار والفقد. على العكس منه، لا تحتاج هي إلى تنويم حواسها أو تخديرها. هلاوسها تكفيها وتُغنيها عن أي محفزات خارجية.

تتوقف عن الغناء، وتبدأ مونولوجاً تقول فيه إن رفيقنا اتحد بالماء وإنها والنار شيء واحد، ثم تتساءل عني أنا، مع أنها غير قادرة على التعرف عليّ وأنا أراقبها. أفهم سؤالها، ولا أكلف نفسي عناء إخبارها بأنني

والخشب سواء، لكنني على العكس منهما لن أرتضي مادتي الأرضية، بل سأكون عقلاً خالصاً.

متقمصاً طريقتها في الكلام المطلسم، أقول بصوت أقرب للصراخ: «العقل مادة أتوم الإلهية والضوء المنبعث من شمسه الخفية عن العيون غير الصافية، لذا سأصير عقلاً خالصاً طمعاً في التقرب من أتوم».

يُخيَّل لي أنها انتبهت للحظات قبل أن يرتفع الحاجز الخفي ليفصل بيننا مجدداً. أتأملها بإشفاق، أرى فيها صورتي وأبصر في رفيقنا صورتها. ثلاثتنا انعكاسات متباينة لأصل واحد. ثلاثتنا حلم متشابك في عقل أتوم، فكرة خطرت له. تماماً كما خطر له هذا الكون المخاتل – في البدء - كماء بلا نهاية متوارٍ خلف طبقات من السديم، قبل أن يؤسسه ويؤثثه على مهل ويحوِّل فوضاه إلى نظام.

أو هذا – على الأقل - ما أنصت إليها وهي تردده، فأفقد صلتي بالحاضر وأجدني في قلب عالم بالغ القدم. تقول إنني الحكم بين الفوضى والنظام. الوسيط بين آلهة الخير وآلهة الشر، بحيث لا يتسيد طرف منهما على الآخر.

أخمن أنها تخلط بيني وبين «تحوت»، إله الكتابة والحكمة والسحر في مصر القديمة، وأتأكد من هذا حين توضح فكرتها بأن النظام في حاجة إلى فوضى تسنده وتدل عليه، والخير لا معنى له في غياب الشر. وأنا، وفق مونولوجاتها المستمرة، المكلف بمهمة عسيرة

مفادها حفظ التوازن بين المتناقضات.

بطريقة ما لم تبتعد كثيراً عن الحقيقة وإن خانها التوفيق في تحديد كنه دوري. كلفث نفسي بالفعل بمهمة سئمث منها، ولم أعد متحمساً لمواصلة القيام بها. هنا في هذا المكان الواقع على حافة العالم، أكافح كي أنسى، غير أن ذاكرتي تبقى حيَّة نابضة. أحسد رفيقَيَّ أحياناً: هو على تغييبه المتعمّد لعقله، وهي على هلاوس فطرية تلغي الواقع، وتفصلني عنها، بحيث لا تتعرف عليَ على الرغم من أنني أكاد أكون محور مونولوجاتها حتى وإن ألبستني فيها ثوباً ليس لي.

توقعت أن تتمحور هلاوسها حول ما جرى قبل دخولها هذه المرحلة، غير أنها لا تذكر شيئاً عن القصف أو القنابل والانفجارات المتتالية. على الأقل لا تفعل هذا خلال الأوقات التي أكون على مقربة منها فيها. لحسن حظها، ليست مسكونة مثلي بأنقاض وصرخات فزع وجثث ملقاة في الشوارع تقتات عليها الجوارح والحيوانات المفترسة، ولا يلاحقها هاجس أن كل حيوان أو طير على هذه الأرض، أليفاً كان أو برياً، متخم بلحم البشر. هاجس نفرني من اللحوم بأنواعها المختلفة.

حذفت ذاكرتها – على ما يبدو - كل ما يخص الحرب الأخيرة والزلازل التالية عليها. أفكر في ارتطاماتها وانفجاراتها وقرقعاتها، فأصل إلى أن الحرب مؤامرة على الصمت. هدفها الأساسي قتله وملء

الفراغات بأكبر قدر ممكن من الضجيج، كأنها مصابة بفوبيا الصمت ولا قدرة لها على تحمله.

ربما لهذا صرت أنحاز له وأغرق نفسي فيه. أستعيض عن النطق بالتدوين. أردت من الكتابة أن تكون تغييباً للصوت، فإذا بها تضمر الكلام في ثناياها. أصمت حتى أكاد أنسى وقع صوتي وتنحذف نبراته من ذاكرتي. أخط آلاف الكلمات في اليوم بلغة اخترعتها بنفسي، وحروف شكلتها على هواي. وحدي أتقن سبر غورها. أفكر في حفرها على الحجر، أو وشمها على جسدي، ثم أكتفي بتدوينها على أوراق أصنعها من لحاء الأشجار، أي من أناي البعيدة المتوارية عن عينَيّ، لكن المُشكّلة لجوهري.

يومض في ذهني خاطر أن قارئاً محتملاً لن يسعه قراءة ما أدونه، وربما حتى لن يتمكن من إدراك أنه ينتمي للغة ما وليس شخبطات عشوائية وليدة عقل مرتبك. على عكس المتوقع يريحني هذا الاحتمال. ينعشني ويثلج صدري. ثم أقرر ألّا أترك الأمر في حيز الاحتمال، وأعمد إلى تدمير مدوناتي بنفسي أولاً بأول. لهذا أفضّل هشاشة الورق ولحظيته على صلابة الحجر.

ما أكتبه يخيفني لأنه يُثَبِّت كل ما رأيت من أهوال. يحييه ويكرره بلا نهاية فلا يمّحِي من ذاكرتي. قد يكون ما يروعني أني حين أكتب ما شهدت عليه أستشعر جمالاً خفياً كامناً فيه. تخونني اللغة، تسحبني إلى جمالياتها. أقرأ فأجد الخرائب جذابة، والموت

اليومي مصاغاً بدقة بارعة تنقيه وتعزل الوجع بعيداً، تطرده من المشهد ولو مؤقتاً.

كان من المفترض بي أن أوثِّق كل ما أقابله، أن أسجل حتى أبسط الأحداث، وأصف أدق التغيّرات التي قد لا يلحظها سواي. غير أنني تمهلت. عشته أولاً حتى الثمالة. رأيت المكان يستحيل ركاماً، والناجين من آهليه يفرون تباعاً. في البداية لم يبقَ هنا سوى قلة تجوب الشوارع بلا هدف. اعتاد رفيقاي الانشغال عنهم ولم أكن أنا أتذكرهم إلّا إذا لمحت أحدهم يسير مغالباً دواراً ينتقل إليّ بالإيحاء. ثم رحل الجميع ما عدانا. بطريقة أو بأخرى اختفى الآخرون كأنما لم يوجدوا قط. أتذكر الشوارع الخاوية، والبيوت المهدمة وآثار الحريق على المباني العامة. في الأيام الأولى كان المشهد صاعقاً ثم بدأت أعتاد عليه بحيث تكاد الحياة السابقة عليه تخبو من ذاكرتي، وكلما انطفأت، ازدهر الخراب بداخلي.

كتبت ولا أزال أكتب بإحساس الشاهد الأخير. من لولاه سيندثر كل شيء ويبتلعه العدم. أحكي سيرة مكان استحال أطلالاً، وصمت يعشش في الكون بأسره، وبشر لم يتبقَّ منهم في هذه المدينة سوى ثلاثة: شخص غارق في ذكرياته، وآخر يخدِّر عقله وحواسه بلا انقطاع، وثالثة جذبتها هلاوسها ونوبات جنونها نحو عالم من الصعب تلمس ملامحه.

أفكر في هذا، وأطمئن إليه، ثم أعود للشك في كل شيء. من أدراني أن ما أراه وأؤمن به هو الصواب؟

كيف أعرف أن رؤيتي للواقع هي الأقرب لحقيقته وجوهره إن كانت له حقيقة أو جوهر؟ يؤلمني أن لا سبيل للتيقن من شيء. لا أفضلية لنسختي عن العالم على نسخة كل منهما عنه. كأننا ثلاثة عوالم متوازية في مكان واحد، ثلاثة أشخاص كل منهم حبيس عقله وهواجسه وخيالاته.

طلسم أخير

كـ«تحوت» خلقتُ نفسي بالكلمات. كلمات مخطوطة في بردية، أو منقوشة على جدار أو محفورة على حجر، أو مدونة بين دفتَيّ كتاب. كان جسدي حروفي، وحركاتي لغتي، وأنفاسي متوناً متروكة للعابرين.

كنت كلمة، وبالكلمة حياتي ومماتي. كنت فكرة خطرت للحجر، وتسربت منه إلى العالم المحيط به. فكرة سكنت الرؤوس واحتلت الأذهان. رؤوس وأذهان من تخيلتهم للتغلب على ضجري وتبرمي من زمني الساكن الممتد. من ابتكرتهم فابتكروني بالمثل. من منحوا لوجودي معنى ولفكرتي العابرة جوهراً مجسداً في كل شيء وأي شيء.

في جلستي بين الصخور، سأظل أنتظر. بصبر صيَّاد وترقبه سأنتظر. لم أعد وحدي. أعني أنني وحدي لكن ليس تماماً. اكتمل وجهي الآخر. فهمت أخيراً كيف يمكن للتركوازي أن يمتزج بالأحمر النبيذي، وللانتقام والنقمة أن يتحدا بالسكينة والحلم.

استوعبت هذا بمجاهدة ذاتي المحدودة والانتصار عليها للانفتاح على براح الكون من حولي، غير أن هناك لحظات أشعر فيها بشيء يجذبني للأسفل، يقيدني ويعيدني لكل ما لستُ إياه. في تلك اللحظات، أراني كعجوز مختلة، لا يكف رأسها عن الدوار، ولا لسانها عن الكلام. امرأة بائسة فقدت أبناءها تحت الأنقاض.

سمعت صرخاتهم الأخيرة ولم تتمكن من إنقاذهم. صرخت بدورها حتى شُرِخ صوتها، ولم يستجب لاستغاثاتها أحد.

يتردد صدى قصف بعيد في خلفية رأسي. ضعيف وهش في البداية، لكنه سرعان ما يستحيل ضجيجاً يسحقني. أفكر في أنني أكبر من أن يكون لي أطفال صغار، فيغيب الصراخ والأبناء، ويتكثف القصف. يقترب من المكتبة المركزية، حيث بقيث وحدي بعد انتهاء الدوام. لم يكن المساء قد حل بعد، وبصيص من ضوء الغروب كان يصل إلى الداخل. فصلتُ الكهرباء عن المبنى، وركضت في الأروقة والدهاليز. لا هم لي إلا فتح كل ما يقابلني من نوافذ لتفادي كسرها بفعل ضغط الهواء الناتج عن الغارة في حال حدوثها. بعدها سرت ملتصقة بالحائط، وحين تصاعد الضجيج الخارجي أكثر، زحفت. في القبو كان الظلام شاملاً. تكومت على نفسي في أحد الأركان غير قادرة على التقاط أنفاسي. كنت متعبة. وصلني نميم لم أنجح في تحديد مصدره. خاطر أن الفئران تشاركني ملجئي أرعبني، ربما أكثر من الموت المطل برأسه على عالمي. على مدى الساعات القليلة السابقة كنت قد نقلت المخطوطات والوثائق المهمة إلى القبو على أمل حفظها لاحقاً في مكان آمن. ظللت في محبسي المختار مدة لا بأس بها، منصتةً بكل حواسي لأصوات الخارج، ولمَا اطمأننت إلى أن الغارات البعيدة توقفت، تسللت من المبنى.

كانت الشوارع خالية والصمت مخيّماً. وكان الخراب يزداد كلما اقتربت من بيتي. على هدي ضوء القمر بدت الخرائب غير حقيقية بشكل ما على الرغم من الروائح المنفرة والتراب الهائج والمخترق لذرات الهواء.

بدلاً من البيت أبصرت كومة من الأحجار والجدران المهدمة. لم يكن هناك مبنى لا يزال قائماً في الجوار. لم أعرف أين اختفى الناس ولا كيف وصلت للضاحية حيث أسكن. تساءلت هل ثمة مخابئ كافية لكل السكان، ثم انشغلت بكوني بلا مأوى في مدينة لا أكاد أتعرف عليها.

حتى بعد أن تشوهت تدريجياً، وتقطعت أوصالها بحواجز وأسوار مشيدة على عجل، وتغطت نوافذها باللون الأزرق، كنت لا أزال قادرة على مد أواصر الألفة بيني وبينها. أصحو فأجد بناية ما قد تهاوت، فأمتن لأنني لم أكن فيها. في طريقي إلى عملي أصادف شارعاً مُنِع المرور فيه وأُغلِق بحاجز حديدي، فلا أكترث، وأتخير مساراً بديلاً أجهد نفسي في إضفاء المزايا عليه. أفكر في تفاصيل وحيوات مختبئة في مخطوطات ووثائق قديمة وكتب نادرة أقضي معظم وقتي معها، فأنشغل عن واقعي المتأرجح على حافة هاوية.

لكن بينما أخطو – بعد خروجي من مخبئي في القبو - في شوارع تجاوز حجم الهدد فيها حجم العمران، وأبصر النوافذ والأبواب مشرعة على بيوت فارغة من الحياة، أيقنت أن ساحراً ما قد تلاعب بمكونات المكان

وأبدل به آخر فيما كنت مختبئة.

لطالما فتنتني ألاعيب السحرة. حتى بعد أن نضجت ظللت أتردد على السيرك بانتظام. كنت أغالب مللي بينما يخاطر لاعبو أكروبات بحيواتهم، أو يستعرض مدرب الأسود قدراته على حيوان مروَّض، أو يتسول المهرج ضحكات الصغار. لكن حين تبدأ فقرة الساحر أتماهى معها بكياني كله دون قدرة على تحجيم شعوري بالإثارة والحماس. أنبهر كل مرة يخرج فيها أرنباً من منديل، أو يقسم امرأة نصفين قبل أن تنبعث كاملة من الصندوق في النهاية. أدرك أن هناك خدعة ما، وهذا تحديداً ما يسلب لُبي. أقصد سحر إخفاء الخداع.

في حفل ببيت أحد الأصدقاء، قبل سنوات، اصطفاني الساحر كي أكون هدفاً لإحدى ألاعيبه. دنوت منه يتنازعني الافتتان والتشكك، فطلب مني الانتحاء جانباً وكتابة كلمة أو عبارة على ورقة أطويها بعناية وسيخبرني هو بفحوى ما كتبت.

وقف مغمضاً عيناه في الطرف الآخر من الحجرة، وما إن انتهيت حتى نطق بما كتبت: «ربة الطلاسم»!

تحدتني عيناه بنظرة ساخرة، فشعرت بأنه قادر على اختراق عقلي. كان هذا اللقب أول ما خطر لي لأنني صادفته في كتاب قديم قرأته ذاك النهار. بدا كتعويذة في وسعها إبطال سحر الساحر وطلسمة كلماتي المدونة فلا يفقه معناها ولا يتعرف حتى عليها.

لم أستوعب حينها كيف تمكن من قراءة عقلي (لن

أقول ورقتي)، كما لا أستوعب عبر أي خدعة نجح ساحر خفي في العبث بمعالم مدينتي وتسوية أحياء كاملة منها بالأرض بينما كنت أغالب هلعي من فئران محتملة في القبو المعتم. لمت نفسي في اللاوعي على ما حدث. خُيِّل إليَّ أنني لو نجحت في تضليل ساحر الحفل لما تمكن أحد أقرانه من إخفاء عالمي القديم وإحلال هذه النسخة القاحلة مكانه. منذ ليلة الغارات تلك رفضتُ سكنى البيوت، وتواءمتُ مع العراء.

لكن حتى بين الصخور، حيث أبدد أوقاتي، لا يكف هذا اليوم عن مخايلتي. يعيد إنتاج نفسه ويزورني بصور متنوعة. أراني أعدو من قاعة لأخرى في بناء فخم. أنظر للسقف المرتفع فألمح ثريات يبرق كريستالها، أواصل الجري دون أن ينزاح البريق من رأسي. أهبط درجات قليلة وأصعد غيرها للانتقال بين القاعات حتى أبلغ حديقة خلفية تطل على نهر. الحديقة مشذبة بدرجة تجعلها غير واقعية. النباتات مزروعة في مربعات يفصل بينها ممرات مبلطة بأحجار مصقولة. أخطو فوق ممر منها فلا تخلِّف خطواتي صوتاً. في النهاية وقفت فوق درج ينتهي في النهر. عبر سطح الماء الداكن تشبثت عيناي بأكوام من المخطوطات والوثائق الغارقة. سيطر علي هاجس أنني تهاونت في حماية عُهدتي من المقتنيات النادرة ولا بدّ من معاقبة نفسي على هذا التقصير. أبكي بحرقة حتى يسودَّ الأفق أمامي.

أفيق من حلمي سعيدة بأنني لستُ هذه المرأة قليلة الحيلة منعدمة المهارة حتى إن سكنت ذكرياتي وأحلامي. تلسعني الشمس، فأنكمش نحو الظل بينما أتحسس الصخور المجاورة. أشعر أن هناك من يراقبني. من يقترب مني، ويهم بقول شيء ما، لكنه يتراجع في آخر لحظة. أو ربما يخبرني فعلاً بأشياء تعجز أذناي عن التقاطها، أو يتجاهلها عقلي. يحوم حولي، ويترك لي فاكهة وثماراً ودورق مياه نادراً ما أمد يدي نحوه.

لحسن الحظ، دائماً ما تتلاشى اللحظات التي تسيطر ذكريات تلك المرأة عليّ فيها، وأعود إلى ذاتي كما أحبها. أغيب عن محيطي القاحل، وأنشغل بأفكار غائمة وذكريات مراوغة لكنها تخصني.

أفكر في أنني على مدار زمان ممتد، كنت هاربة من نفسي وعبء أفكاري قبل أن أكون هاربة من الآخرين. وكان هناك من يلاحقني. من صار لوجوده معنى بفضل هذه الملاحقة. رأى نفسه صيّاداً لي، ورأيت فيه فريستي. لم يخطئ أي منا. كان صيادي وفريستي في آن.

بالخداع والمراوغة والزئبقية اقتنصته، بل صرت أناه وصار أناي. ومع هذا سأواصل انتظاري. سأترقب معه وصول آخرين. بدمج قوتي مع قوته ستغادر المرأة المتجولة ليلاً في مدينة مدمرة خيالاتي وذاكرتي، وسننجح أنا وهو في جذب قادمين مستقبليين - للانضمام إلينا - كما يجذب مغناطيس قوي قطعة

معدن.

في خيالي، تتأرجح مدينة كأنها صخرة محلّقة في الفضاء، ومع تأرجحها يتساقط منها واحد وراء الآخر. يخوض كل منهم أوديسته على إيقاع أحدده داخل رأسي مع هامش حرية يختلف من شخص منهم لآخر. هامش يكفل لي متعة الدهشة والمفاجأة.

على الدرب يخترع كل منهم ذاته وطريقه، وفي أثناء هذا يخترعني ويعيد تشكيلي. أتعدد وأتنوع في مخيلتهم، كما يتعددون ويتنوعون في مخيلتي.

يقرر كل منهم - دونما دراية منه – أسيكون بدوره رباً للكلمات ويفاجئني بما لم أتوقع؟! أم سيترك لأهوائي وأمزجتي حرية التلاعب به؟!

سينجو بنفسه أم سيدعني أختار له مكانه الأخير: في أحشاء نهر أو مسمماً ببخار الزئبق أو حتى أقرر له أن يظل حيث هو سائراً في حلقات مفرغة، أو مبحراً في بحر لا تحتويه الخرائط مطارداً سراباً لا يخص غيري، متعثراً في وجه من وجوهي العديدة.

وفي خضم هذا كله سوف ننتظر، صيّادي وأنا، ثالثنا. من سنكتمل بوجوده. اندمج صيّادي بالماء، واخترت أنا الحجر منذ زمن، أما ثالثنا فلا نعرف إن كان سينحاز إلى النار أم الهواء! أؤمن فقط أنه وحده من سوف يقدر على الوصول إلينا. من سوف يكون بإمكانه إبعاد طيف المرأة الخائفة في القبو عني.

منصورة عزّ الدين:

كاتبة مصرية. تُرجِمت رواياتها إلى الإنجليزية والإيطالية والألمانية والفرنسية والإندونيسية، وقصصها القصيرة إلى أكثر من عشر لغات.

أصدرت الكتب التالية:

- ضوء مهتز، مجموعة قصصية، دار ميريت 2001.
- متاهة مريم، رواية، دار ميريت 2004.
- وراء الفردوس، رواية، دار العين 2009. وصلت إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية عام 2010.
- نحو الجنون، مجموعة قصصية، دار ميريت 2013. حازت على جائزة أفضل مجموعة قصصية في معرض القاهرة للكتاب 2014.
- جبل الزمرد، رواية، دار التنوير 2014. نالت جائزة أفضل رواية عربية في معرض الشارقة للكتاب عام 2014.
- أخيلة الظل، رواية، دار التنوير 2017.